

الفصل الثالث

جوانب صفي الدين الحلي

١ - آثاره

(١) مؤلفاته

ذكر جورجى زيدان فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » وبروكلمان فى معجمه أن صفي الدين له مؤلفات عدة . وهى - عدا ما ذكره من مجموعات شعره التى سنتحدث عنها فيما بعد - :

١ - « العاقل الحالى والمرخص الغالى » فى الزجل والمواليا وكان وكان والقوما . ومنه نسخة مصورة فى دار الكتب المصرية . وبه بعض رسائله وحديث عن الزجل .
٢ - وصف الصيد بالبندق واسمه « الخدمة الجليلة » . وفيه يصف هذا الضرب من الصيد .

٣ - ديوان « صفوة الشعراء وخلاصة البلغاء » . ولعله مختارات شعرية .

٤ - « الأغلاطى » وهو معجم للأغلاط اللغوية .

ومنها أيضاً :

٥ - « النتائج الإلهية » ، وهو كتاب شرح فيه بديعته .

٦ - « الدرّ النفيس فى أجناس التجنيس » .

ولم نعر للكتب الأربعة الأولى على أثر : أما الكتابان الآخران فإليك وجازة

عن كل منهما :

١ - « النتائج الإلهية » : نظم صفي الدين قصيدة بديعية فى مدح الرسول

عليه السلام ، وهى تحتوى على مائة وواحد وخمسين نوعاً بديعياً ، بعضها من ابتكار صفي الدين . وقد رأى أن يشرحها فى كتاب فكان هو « النتائج الإلهية » ،

وهو شرح وجيز سهل لأنواع البديع لا غموض فيه ولا صعوبة ، برىء من كثير من عبارات البلاغيين ومصطلحاتهم الخشنة . فهو من هذه الناحية من أمثل كتب البديع . ولكنه لا يقارن « بجزارة الأدب » لابن حجة الحموى التى شرح فيها بديعته فإنها أوسع وأوفى وأكثر تفصيلاً وامتلاءً بمسائل الأدب والنقد والتاريخ .

وروى صنئ الدين أنه وهو بسبيل نظم البديعية وتأليف شرحها قرأ سبعين كتاباً . وقد سجل أسماء هذه الكتب فى مقدمة الشرح ومنها أربعون نقلها عن ابن أبى الأصبع ، وثلاثون جدت من بعده . والواقع أنها جميعاً أمهات كتب البلاغة حتى عصره .

وقد تحدث عن بعض رجال هذا الفن وأشار إلى شىء من جهودهم فى جمع ألوان البلاغة واستنباطها ، وهو حديث لطيف يعين الباحث فى نشأة علم البلاغة . ونذكر بهذه المناسبة أن رجال الأدب فى عصر صنئ الدين كانوا يعدون « البديع » علماً على كل ألوان البلاغة ، وليس مقصوراً على المحسنات ، أى أنهم طووا كل أبوابها تحت لواء « البديع » .

٢- الدر النفيس فى أجناس التجنيس : هذا كتاب يقع فى صفحات قليلة تحدث فيه صنئ الدين عن أنواع التجنيس ومثّل لها . وهو لا يخرج فى حديثه وتمثيله عن المتداول فى كتب البديع^(١) .

(ب) رسائله

لصنئ الدين ثلاث رسائل طريفة مثبتة فى ديوان شعره المطبوع ، وهى منشورة بديعية الأسلوب ، وإليك وجازة عن كل منها :

١- « الرسالة المهملة » : صدرت هذه الرسالة بمقدمة يفهم منها أن سبب كتابتها أن الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر ، رتب لصنئ الدين مرتباً وأهدى إليه قماشاً وجمالاً عام ٧٢٣ هـ وهو فى طريقه إلى الحج . فقطع الوزير « كريم الدين إدرارى » مرتب صنئ الدين . فكتبها إلى السلطان يشكو إليه

(١) « النتائج الإلهية » مخطوط بمكتبة البلدية بالاسكندرية . « والدر النفيس » مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

ويستنجز ما وعد به ، ويستأذن في السفر .

وقد راعى صنّي الدين في كتابتها أن تكون جميع حروفها « مهملة » أى غير منقوطة ، باستثناء تاء التأنيث المربوطة . وكأنه اقتدى فيها بالحريري في خطبته بالمقامة السمرقندية . وسميت الرسالة لذلك « المهملة » .

٢ - « الرسالة التوعمية » : أنشأها صنّي الدين عام ٧٠٠ هـ على نمط من أنماط المقامات الحريرية . وكان سبب إنشائها أنه جرى ذكر أبيات للحريري في مجلس المنصور الأرتقي ، وأولها : « زُيِّنَتْ زَيْنَبُ بَقْدَ يَقْدُ » وقيل إن المتأخرين عجزوا عن هذه الصناعة نظماً ونثراً . وكان صنّي الدين في ذلك الحين قد وفد حديثاً إلى ماردین ، واتصل لأول مرة بمجالس المنصور . وكان حينذاك يطمع في وظيفة كتابية يعيش من مرتبها مدة مقامه بماردین . فوجد الفرصة سانحة وملائمة لعرض بضاعته الأدبية وبيان مقدرته الإنشائية . فأنشأ الرسالة التوعمية .

فهى من بواكير رسائله بماردین .

وتألف - كما قال - من أربعمئة فقرة نثراً ، وثمانين نظماً في عشرة أبيات على وزن واحد وروى واحد في معانى شتى .

وراعى صنّي الدين في صياغتها أن تكون على نمط « زُيِّنَتْ زَيْنَبُ بَقْدَ يَقْدَ » يتجانس فيها كل لفظين متجاورين تجانساً خطياً ، لا يكادان يختلفان إلا في حركات الحروف والنقط - فكان كل لفظين توأمان لهذا التشابه الشديد . ولذلك سميت الرسالة « التوعمية » .

وهذه صناعة ، وإن دلت على حذق ومهارة ، فيها تكلف شديد وانصراف صارخ عن جانب المعنى والفكرة إلى جانب اللفظ . ومثلها لا غناء فيها ولا طائل تحتها .

وكان موضوع الرسالة مدح الملك المنصور ، وشكوى الحال وعرض الآمال وفي مقدمتها يقول صنّي الدين مخاطباً المنصور :

« قَبْلَ قَبْلِ يَرَاكَ ثَرَاكَ عَبْدٌ عِنْدَ رَخَاكَ رَجَاكَ . أَيْ أَبَى سُؤَالَ سِوَاكَ » .

وهكذا إلى آخر الرسالة نثرها وشعرها .

٣ - « رسالة الدار عن محاورات الفار » : هذه رسالة - أو مقامة - طريفة خفيفة الظل . كتبها صفي الدين على لسان دار سكنها بماردين ، وتعرف « بدار ابن الدكناس » . وفيها تشكو الدار إلى « القلعة الشهباء » مقر الملك الصالح الأرتقي ، أن أحد نوابه كان عليه لصفي الدين دين ، وكان عليه لبعض أصدقاء صفي الدين دين آخر أخذه على يده . وأخرج الدينين على مصالح الدولة ! وتعذر عليه وفاؤهما وماطل في الدفع . ولم يؤثر صني الدين مخاشنة هذا النائب لما بينهما من الصحبة . فرأى أن ينشئ هذه الرسالة على لسان داره يشكو للملك الصالح . وكان ذلك على سبيل الخلاعة والمزاج . فلما اطلع الملك عليها أطلق له المال من خزائنه .

والرسالة - كما أشرنا - فكهة جميلة الأسلوب رقيقة العبارة . بالرغم مما يشقلها من أصباغ البدع . وهي طويلة جمعت -- فضلاً عن نزعتها الفكاهية - أغراضاً كتابية عدة . كالمدح والشكوى والمدح والوصف والحكمة والاستعطاف . هذا ، والطريف في الموضوع ، حوار الثمران فيما بينهم حول الدار وما مسها من البؤس . وهو حوار تمثيلي لطيف نفهم منه أن النثر التمثيلي طاف يوماً ما ، وبصورة من الصور ، بأقلام أدباء العربية .

وبعد ، فهذه رسائله الثلاث المثبتة في ديوانه . ولا نشك أن لصفي الدين رسائل أخرى ، ومنها رسائل إخوانية . ويدل ذلك على ذلك أنه أثبت في ديوانه فصلاً برمته سجل فيه الأبيات والمقطوعات التي صدر بها رسائله المنشورة إلى الأعيان والإخوان ، في أغراض شتى .

(ج) مجموعات أشعاره :

١ - ديوان شعره (١) :

يحتوى هذا الديوان على أكثر من عشرة آلاف بيت في اثني عشر باباً .

(١) اعتمدنا في ديوان شعره على طبعته الثلاث : طبعة بيروت عام ١٨٩٢م ، وطبعة دمشق عام ١٢٩٧هـ وطبعة النجف الأشرف عام ١٩٥٦م . وعلى نسختين خطيتين إحداهما بدار كتب البلدية بإسكندرية ، والثانية بالمكتبة الأزهرية . والخلاف بين هذه النسخ يسير ، من ناحية محتوياتها .

ويحتوى كل باب على فصلين أو أكثر . وجملة فصولها ثلاثون . والأبواب على التوالي وفي إيجاز : الفخر والحماسة . المدح . الطرديات والوصف . الإخوانيات . المراثى . الغزل . الخمريات ووصف الأزهار . الشكوى والعتاب . الاستهداء والاعتذار . الألغاز . الملح والأهاجى . الأدب والزهد .

وألحق بالديوان (١) ديوانه درر النحور . (ب) بديعته . (ج) رسائله الثلاث المنشورة التي أشرنا إليها . وليس به شيء من زجله .

وقد جمع صفى الدين ديوانه لأول مرة ، في عهد الناصر محمد بن قلاوون بإشارة كاتب سره علاء الدين ابن الأثير . ويبدو أن ما جمعه حينذاك ليس كل شعره . بدليل قوله في مقدمته مشيراً إلى الوزير علاء الدين بن الأثير : « أشار رئيس وزرائه وزعيم كتاب إنشائه . عن إشارته العالمة ، أن أجمع له جزءاً من جد شعري وهزله . ورقيق لفظي وحزله . وأن أبوبه آيين تبويب . وأرتبه أحسن ترتيب . ليكون ديواناً للمحاضرة . ومجموعاً للمذاكرة . فأجبت بالسمع والطاعة . واستحضرت ما حضرني حسب الاستطاعة . فاخترت منه ما يجب ويبتغى . ورتبته على ما يجب وينبغي »

وهذا النص يشعرا بأن الديوان مختارات من شعر صفى الدين ، وأن ثم شعراً له آخر لم يسجله . ثم إذا راعينا أنه جمعه في نحو عام ٧٢٦ هـ ، وأنه توفي في عام ٧٥٠ هـ ، كان لنا أن نتساءل عن نتاجه الشعري في مدى الأربعة والعشرين عاماً الباقية .

على أن المتصفح للديوان المطبوع يرى فيه مثلاً — قصيدة في رثاء المؤيد صاحب حماة . وقد توفي عام ٧٣٢ هـ ، وقصيدة في تعزية ابنه الأفضل وهنئته بعرش أبيه ، وذلك عام ٧٣٣ هـ . وأخرى في رثاء الناصر بن قلاوون ، وقد توفي عام ٧٤١ هـ . وأمثال هذه القصائد في ديوانه قليل . ولكن يفهم منها أن الديوان

والنسخ المتبوعة بها أخطاء كثيرة وخالية من الشروح والتعليقات .

وفي صدر النسخة الخطية التي بدار كتب الإسكندرية رسم لدوائر متداخلة إحداها داخل الأخرى وكل منها مقسم أنساماً ، وفي كل قسم كتب اسم طبقة موسيقية . وكتب في أصغر دوائرها « دائرة الأنغام للشيخ صفى الدين الخلى » . فلعل صفى الدين كان ذا خبرة بفن الموسيقى .

المطبوع عن نسخة خطية ، ليس بالضبط ديوانه الذى جمعه فى عهد الناصر ،
بدليل هذه الإضافات . وأن هذه الإضافات عثر عليها الناشر بعد ، أو
أضافها الناسخون لديوانه فيما بعد عام ٧٢٦ هـ . والذى نريد أن نخلص إليه ،
هو أن جزءاً كبيراً من شعر صفي الدين مفقود .

وقد روى صاحب « فوات الوفيات » - وهو متوفى عام ٧٦٤ هـ ، ومن
معاصري صفي الدين - قال : « وديوانه الذى دوّنه بنفسه ثلاثة مجلدات وكله
جيد » .

وأخيراً نوجه الأنظار إلى ضرورة جمع ديوان هذا الشاعر الكبير ضاماً شعره
كله من مظانّه . ثم طبعه طبعاً حديثاً مزوداً بالشروح والتعليقات . فإن طبعاته
الحالية خالية من أى شرح وتعليق .

ولا بد من الإشارة - فضلاً عمّا مرّ - إلى أن باب المديح يحتوى على عدة
مجاميع شعرية طلية . وهى :

(١) المنصوريات

هى نحو ثمانى قصائد صاغها صفي الدين فى مدح المنصور الأرتقى ، فنسبت
إليه . وهى قصائد طويلة منها ما يقع فى أكثر من سبعين بيتاً . وكل منها متنوع
الأغراض - فضلاً عن غرضها الرئيسى - فمنها على سبيل المثال : « القصيدة
القافية » : نظمها فى عام ٧٠١ هـ بعد أن انتهى من نظم « الأرتقيات » وقدمها إلى
الملك المنصور - وقد بدأها بالتشويق إلى دياره بالعراق ووصف لوعته وطول ليله ،
وانتقل إلى مدح المنصور ثم نوه مفتخراً بقصائده الأرتقيات وإبداعه فى نظمها .
« موشحته الرائية » : ونظم فى عام ٧٠١ هـ أيضاً موشحة خمسة رائية . كل
مذهب منها خمسة أشطار . وهى من بحر الرجز . وقد وصف فيها الصيد فى وديان
ديار بكر ومناظرها الطبيعية وما فيها من أشجار وأزهار وأطيّار وأمواه وأنسام .
وكان الفصل خريفاً يبشّر بالشتاء - وندر احتفال شعراء العربية بوصف الخريف
وما فيه من مجالى الجمال - ثم انتقل إلى مدح المنصور . ولم يخل مدحه من
مبالغات .

وموشحة صنّي الدين هذه ، على رقّتها وعدوبتها . لم تبلغ ما بلغت من ذلك ، قصيدة « مصائد الشوارد » التي نظمها ابن نباتة معاصره ، في نحو مائتي بيت ، أرجوزةً يصف فيها الصيد في أودية حماة ويمدح ملكها الأفضل . على أن لصنّي الدين في مدح المنصور قصائد أخرى ، ومقطعات لطيفة . وحبذا لو جمعت كلها متجاورة في صعيد واحد وعُنى بشرحها .

(ب) الصالحيات

هي نحو خمس عشرة قصيدة في مدح الصالح الأرتقي ، فنسبت إليه . وهي قصائد طويلة أيضاً ضافية على نمط من « المنصوريات » ، وفيها وفي « المنصوريات » تتبدى علاقة صنّي الدين بملوك بني أرتق . وتتضح منزلته عندهم . فإنه نهج في بعضها نهجاً سياسياً بذل لم فيه الرأي والنصيحة .

قصيدته الرائية : ومن أمتع الصالحيات وأجمعها أغراضاً ومعاني . هذه القصيدة الرائية التي تقع في نحو ٨٥ بيتاً . بدأها صنّي الدين بوصف روضة ، فذكر ما فيها من أغصان منصوبة وماء مصروف وظل ممدود وريح رخاء ، ورجس غض وأحوان زاه . ونوه بما كان له فيها من تصاب عاونه عليه شبابه اليافع . وبما لابس ذلك من غناء ورقص وخمر . وهنا يصف لك صنّي الدين مغنياً يضرب على عوده . وراقصات تميل وتثنى . وحامل كأس يدور بعطفه المحمور ، إلى غير ذلك مما يرسم صورة جنة فيحاء امتلأت حياة وحركة ، وأفعمت نعيماً وممتعة .

وينتقل بعد ذلك إلى مدح الصالح فينعتة بكل فضيلة نفسية ، فهو الواهب المال ، المهيب الطلعة صاحب الخيل المبدولة ، والجواسق العامرة المأهولة ، قاهر الأعداء ومذل القرناء . إلى غير ذلك .

وينوه بعد ذلك بشعره مفتخراً به معلناً بأن الزمن قد تأخر به ، وحقه أن يتقدم ، قارناً نفسه بأبي الطيب المتنبّي فآخراً عليه . . .

هذا ، وإذا لاحظنا أن اتصال صنّ الدين بالأرتقيين لبث من نحو عام ٧٠٠ هـ إلى نحو عام ٧٤٠ هـ وشعرنا بأن مدائحه فيهم قليلة بالنسبة لهذا الزمن الطويل . فلا بد أنه ضاع منها الشيء الكثير .

(ح) الناصريات

هذه ثلاث قصائد في مدح الناصر محمد بن قلاوون . منها أرجوزة نونية جانس فيها بين ضرب كل بيت وعروضه . وسجلنا منها أبياتاً فيما مر . وقصيدته الثانية بائية . وقد اقترحت عليه معارضة لبائية المنتهي التي مطلعها :

بأبي الشمس الجانحات غوارباً اللابسات من الحرير جلابياً^(١)

فنظم صنّ الدين هذه البائية في ٦١ بيتاً . وبرز فيها ثلاثة أغراض : الغزل أولاً ثم مدح الناصر ، وقد استغرق المدح أكثر أبياتها . ثم التنويه بنفسه وياكram الناصر له .

وتعد هذه البائية من أجود قصائد صنّ الدين لمائة نسجها وكثرة معانيها ، ولأن أكثرها في المديح وهو غرضها الأساسي ، ثم لعذوبتها ولما فيها من بديع غير متكلف .

قصيدته النونية الثالثة : نظمها في مدح الناصر بمناسبة كسر الخليج . وقد قدمها بوصف الربيع ، وتقع في نحو ٧٠ بيتاً وهي من القصائد المشهورة المتداولة في وصف الربيع .

(د) المؤيديات والأفضليات

وبديوانه نحو ثمانى قصائد في مدح الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة ، وفي مدح ابنه الملك الأفضل . ولكنها لم تسم باسمه كغيرها . ولا بأس من أن نطلق عليها لفظ « المؤيديات » و « الأفضليات » .

(١) بأبي . . . أى أفدى بأبي - الجانحات : المائلات . والغوارب : جمع غارب وهو الكاهل أو أعلى الظهر إلى الرقبة . والمراد الألق يملز دلالة وتبها .

٢ - درر النحور

هذا اسم ديوان شعر مستقل نظمه صفي الدين في مدح الملك المنصور الأرتقي وتسمى قصائده « الأرتقيات » نسبة إلى أرتق . ويقال لها أيضاً « المحبوكات » . لأنها محبوكة الطرفين ، حروف أوائل أبياتها كروبيها .

وقد نظمه الشاعر في أول ما اتصل بالملك المنصور ليبين له مقدرته على النظم وعلو كعبه في الأدب . وكان بعض هذه الدول التركية المتفرعة من العباسية أو عاشت بعدها ، تحتفل احتفالاً ما بالأدب والشعر العربي . فأراد صفي الدين أن يكون ديوانه هذا « نموذجاً » لشعره ولما سيكون منه إذا وجد صدرأ رجباً وكنفأ واسمها لدى المنصور . وقد كانت عاقبته ما رأيناه عند الحديث عن صلته ببني أرتق .

ويبدو أن صفي الدين نظمها كلها « التسع والعشرين » قصيدة ، دفعة واحدة لا بمناسبة ، سوى مناسبة واحدة وهي قدمه على المنصور في نحو سنة ٧٠٠ هـ أو ٧٠١ هـ أملاً :

قال من القصيدة الممزية يفصح عن ذلك :

أُبَدَّتْ عَنْ أَرْضِ الْعِرَاقِ رِكَابِي مُتَقَلًّا كَتَنَقُلِ الْأَفْيَاءِ^(١)
أَرْجُو بِقَطْعِ الْبَيْدِ قَطْعَ مَطَامِيي وَأَرْوُمُ بِالْمَنْصُورِ نَصَرَ لُؤَائِي
أَدْرَكْتَهُ فَجَعَلْتُ أُنْمُ قَرَحَةَ بُوْصُولِهِ أَخْفَافَ نُوقِ رَجَائِي^(٢)

وقد نظمها بعدد حروف الهجاء ، ليكون لكل حرف منها قصيدة ، هو قافيتها ، فقصيدة ألفية . وقصيدة بائية ، وهلم جراً .

والتزم أن يبدأ كل بيت في القصيدة بنفس الحرف الذي ينتهي به . فكل أبيات القصيدة الألفية - مثلاً - تبدأ بالألف كما تنتهي بالألف . وهكذا جميع القصائد . وهذا ضرب من الالتزام جديد ، وفيه تكلف لا داعي إليه سوى الرغبة في بيان المقدرة على صناعة الشعر .

(١) الأفياء : الظلال جمع فيء .

(٢) في قوله : أخفاف نوق رجائي ، تكلف في الاستعارة .

والترم كذلك أن يكون عدد أبيات كل قصيدة تسعة وعشرين بيتاً . فجملة أبيات الأرتقيات نحو خمسمائة وخمسين .

والأرتقيات في جملتها تدور حول معان واحدة ، على وجه التقريب . وهي وصف حالته قبل القدوم إلى المنصور ، وآماله التي علقها عليه ، ومدحه ومدح بيته . وكثيراً ما قدم هذا بغزل أو وصف خمر أو نحو ذلك .

ولا ترتاب في أن « الأرتقيات » عمل شعري محمود ، ولا سيما إذا راعينا أن الشاعر لم يخفت نفسه ولم يسفل نظمه أو يضطرب . بل حافظ على مستواه ، على الرغم من اشتراك المعاني بينها . ولكنه عمل لا يساوى ما بذل فيه من جهد ومشقة . وقد وازن تلك القصائد وعارضها جماعة من الأواخر في مواضع شتى ^(١) .

٣ — الكافية البديعية

ابتدعت « البديعيات » في عصر صفي الدين الحلي . وترجع فكرتها إلى ثلاثة أمور : غرام الشعراء بالبديع ، وإعجابهم ببردة البوصيري ، ورغبتهم في مدح الرسول عليه السلام .

والبديعية قصيدة ميمية من بحر البسيط على نمط بردة البوصيري ، في مدح الرسول عليه السلام . والغرض الأول من نظمها إيراد المحسنات البديعية بحيث يحتوى كل بيت فيها على نوع — على الأقل — من هذه المحسنات . وقد يمثل الشاعر له ، أو يشير إلى اسمه بكلمة . وقد يشير إلى اسم النوع ولا يمثل له .

هذه هي الصفات الغالبة التي تتصف بها البديعية ، وقد تخرج عليها ، فتتظم مثلاً من بحر آخر غير البسيط ، أو تنظم في غير مدح الرسول عليه السلام . وهكذا . غير أنها لا تخلو من البديع .

والبديعيات ، لهذا ، منظومات فحسب ، يمكن إلحاقها بنظم حقائق العلوم . وقد نظم صفي الدين بديعية لطيفة سماها « الكافية البديعية في المدائح النبوية » . واختلف المؤرخون فيمن ابتكر هذا الفن الشعري الجديد . أهو صفي الدين أم

(١) عن كتاب البابليات لليقوتى ، وقد ذكر أسماء بعض المعارضين — انظر مقدمة ديوانه

ابن جابر الأندلسي . ذلك لأن ابن جابر نظم بديعية أخرى تعرف ببديعية العميان . وهو معاصر لصنى الدين وقد توفى عام ٧٨٠ هـ (١) .

والذى يقرأ مقدمة صنى الدين فى شرح بديعته هذه ، يشعر أنه مخترع هذا اللون من الشعر . وقد بين فى هذه المقدمة أنه أراد أن يؤلف كتاباً فى البديع فعرته علة طالت مدتها . ثم رأى فى منامه رسالة من النبي عليه السلام يتقاضاه المديح . فعدل عن تأليفه إلى نظم قصيدة تتضمن أنواع البديع ، ثم شرحها فى كتابه « النتائج الإلهية » .

وهذا المنام يذكرنا بمنام البوصيرى الخاص بقصيدته « البردة » . فإنه كان قد مرض وطال مرضه ، فنظم هذه القصيدة مدحاً فى الرسول الكريم وتشفع به إلى الله ليشفيه . ثم رأى النبي عليه السلام فى المنام ، فسح على مكان مرضه وأتى عليه « بردة » . واتصل هذا المنام بحدوث ورؤى أخرى . ومن ثم سميت القصيدة بالبردة .

ونحن هنا لا نتعرض لتفسير هذه الرؤى . وقد ناقشها المرحوم الدكتور زكى مبارك فى كتابه « المدائح النبوية » .

والذى نوجه إليه النظر بهذه المناسبة شيثان : الأول أن شاعراً اسمه أمين الدين (٢) السليمانى الإربلى المتوفى عام ٦٧٠ هـ نظم قصيدة غزلية فى ستة وثلاثين بيتاً فى كل منها نوع بديعى . فهو أسبق من الحللى وابن جابر بفكرة البديعية . والثانى أن ابتكار البديعيات كان فتحاً مبيناً فى الأدب العربى . فقد توالى ناظمو البديعيات على هذا النمط وغيره ، حتى أصبحت مجموعة ضخمة جديرة بأن تجمع وحدها فى ديوان . ومن نظمها بعد صنى الدين ، عز الدين الموصلى وتقى الدين بن حجة الحموى (٣) .

وقد شرح أكثر ناظمى البديعيات بديعياتهم فى كتب ، منها الوجيز ومنها

(١) انظر المدائح النبوية لزكى مبارك . (٢) ترجمه فى فوات الوفيات .

(٣) يبلغ عدد شعراء البديعيات نحو ثلاثين شاعراً ، وقد ذكرهم العلامة الأمين فى الجزء السادس من كتابه « الغدير » - انظر مقدمة ديوان الحللى طبعة النجف الأشرف .

المطول، فأضافوا بذلك ثروة جديدة إلى الأدب، ومنهم صنى الدين فى « النتائج الإلاهية »، وتقى الدين بن حجة فى كتابه « تقديم أبى بكر » المشهور بخزانة الأدب .

وقد شرح صنى الدين نهجه الذى اتبعه فى نظم بديعيته فقال : « وألزمتم نفسى فى نظمها عدم التكلف وترك التعسف والجرى على ما أخذت به نفسى من رقة اللفظ وسهولته ، وقوة المعنى وصحته ، وبراعة المطلع والمنزع ، وحسن المطاب والمقطع . وتمكن قوافيها وظهور القوى فيها ، بحيث يحسبها السامع غفلا من الصنائع » .

وأعتقد أن صنى الدين قد برّ فى منهجه - ولو إلى حد - فإن بديعيته ، كما تبدو لنا ، أمثل البديعيات وأسلسها على الرغم من أن جميع البديعيات تعاني تكلفات كثيرة وتعسفات عدة .

وبلغ عدد أبياتها مائة وخمسة وأربعين بيتاً . تشتمل على مائة وواحد وخسين نوعاً بديعياً ، بعضها من ابتكار صنى الدين ، فى كل بيت منها نوع بديعى على الأقل . ولكنه لم يشر إلى أسماء الأنواع .

وبديعية صنى الدين بسهولة نسبياً وبوضوح أمثلتها البديعية . يستطيع طالب البديع والبلغة أن يستغنى بها وبشرحها عن كثير من المطولات ، وقد قال صنى الدين فى فاتحة هذه المنظومة :

« انظر أيها الناقد الأديب . والعالم اللبيب . إلى غزارة الجمع ، ضمن الريافة فى السمع . فإنها نتيجة سبعين كتاباً ، لم أعد منها باباً . فاستغن بها عن حشو الكتب المطولة ، ووعر الألفاظ المغلغلة .

وَدَعُ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرِ صَوْتِي فَإِنِّي أَنَا الصَّائِحُ الحَكِيمُ وَالْآخِرُ الصَّدَى ^(١)

وبعد فهذه أهم المجاميع الشعرية الموجودة بديوان صنى الدين . ويتبقى بعد ذلك قصائده ومقطعاته المتنوعة ، وهى مئات ، فى سائر أبوابه الاثنى عشر وفصولها الثلاثين . ونكتفى بالحديث عنها فى جملة فنون شعره .

٢ - نثره الفنى وأسلوبه

أشرنا فيما سبق إلى أن لصنى الدين ثلاث رسائل ، وهى كل ما وجدناه من رسائله المنشورة ملحقاً بديوان شعره . وهذا نتاج فى النثر قليل ، بالنسبة إلى حياته الطويلة التى يبدو لنا أنها كانت خصبة .

والعجيب أن صنى الدين نرح إلى بنى أرتق وعرض بطلب خدمة لإنشاء بعض رسائلهم . أفترأهم اكتفوا به شاعراً ؟ ولم يسندوا إليه تدبيح رسائلهم ؟ أم أنهم وظفوه منشئاً وعن الزمان على ما كتب وما أنشأ ، كما عنى على ما كتب وأنشأ كثير من منشئى عصره ؟ ولم يستطع جمعه كما جمع شعره . قد يكون هذا وقد يكون ذلك .

على أن رسائله الثلاث تدل على علو كعبه فى الكتابة وعلى مقدرته فى الإنشاء ، وعلى أنه لا ينقصه من مؤهلاتهما شئ . بل اكتملت له وزاد عليها ، لما ترى من تلاعبه فى ألفاظه ، وشروته اللغوية .

وقد نهج صنى الدين فيها النهج السائد فى عصره . وهو النهج البديعى المبني على الطريقة الفاضلية . وقصارى هذا النهج : التزامُ السجع والجناسُ والطباق والإكثار من التورية والاستخدام والتلميح للحوادث الشهيرة وحل المنظوم واقتباس الآيات وتضمين الأمثال ومشهور الأقوال والإمعان فى التشبيه والاستعارة ، إلى غير ذلك .

غير أننا نلاحظ فى نثر صنى الدين عدة خصوصيات منها :

(١) أن سجعاته خفيفة قصيرة مقبولة فى جملتها ، يتكون بعضها أحياناً من مبتدأ وخبر أو فعل وفاعل ، أو موصوف وصفة ، أو مضاف ومضاف إليه أو نحو ذلك ، بغير حشو ولا قيود ولا فصل ولا تقديم ولا تأخير . ومثل ذلك قوله من رسالته المهملة : « أسد الآساد . ومكمد الحساد . ومورد الوراد . الضمام الأروع . والأسد الأدرع . أسد كل حاسر ومدرع . هادم الأموال . وحامل الأهوال . وحاطم الأسل الطوال . » . . . إلخ .

هذا ، مع أن كتاب عصره وضعوا نظاماً لل فقرات المسجوعة واهتموا بعدد كلماتها ، وآثروا إطالة الفقرات التالية عن الأولى . إلى غير ذلك .

(ب) أنه لم يهتم بالتورية والاستخدام ، مع أنهما كانا من دعائم الكتابة في مصر والشام في زمانه - وزعيمهما غير منازع ، جمال الدين بن نباتة المصري . ولعل طول إقامة صفي الدين بعيداً عن هذين المصريين جعله أضعف تأثيراً بمناهج كتابتهما وأقل خبرة بهاتين الدعامتين .

(ح) أنه أكثر احتفالاً بالجناس ، وذلك بالقياس إلى فحول كتاب جيله كالشهاب الحلبي وابن نباتة ، الذي عدّ الجناس محسناً لفظياً لا معنوياً ، فلا طائل تحته .

(د) على أن لصفي الدين خصوصية غريبة - بدت في شعره أكثر من بدوها في نثره الموجود بين أيدينا - وتلك هي جنوحه في بعض ما كتب إلى التلاعب بالألفاظ ، وذلك باستعمالها معجمة - منقوطة - أو مهملة ، أو مصحفة مجنسة تجنيساً خطيبياً أو نحو ذلك . وهو تكلف شديد لا غناء فيه .

أجل إن لغيره من الكتاب أو الشعراء تلاحباً على هذا الغرار . ولكن صفي الدين أربى عليهم في هذا المضمار . ومن الأمثلة على ذلك مجانساته الخطية في الرسالة التوهمية . واستخدام الكلمات غير المنقوطة في الرسالة المهملة . ومن الرسالة التوهمية قوله : يخاطب الملك الناصر :

« عَبْدُهُ عِنْدَهُ وَهُمْ وَهُمْ ، وَقَدْ وَفَدَ مُسْتَجِيرًا مُسْتَجِيرًا حُرْمَةَ حَرَمِهِ ، وَأَحَبُّ وَأَجِبُّ ثَبَاتِهِ بِبَابِ الْعَالِي ، الْفَالِي ، بِحَيْثُ يُجِيبُ نِدَاهُ نِدَاهُ . فَقَدْ فَقَدَ أَهْلَهُ أَهْلِهِ وَوَلَدَهُ وَوَلَدَهُ ، وَرَجَالَهُ وَرَجَالَهُ وَمَالَهُ ، وَخَيْلَهُ وَخَيْلَهُ وَنَسَبَهُ وَنَسَبَهُ ، وَنُضَارَهُ وَنُضَارَهُ وَجِبَالَهُ وَجِبَالَهُ وَمَعَاشِرَهُ وَمَعَاشِرَهُ » . الخ .

(هـ) أنه يسوق أبياتاً من الشعر بين فقرات نثره ، مناسبة للسياق . ونعتقد أنها من شعره لا من شعر غيره .

(و) أنه يستخدم ألفاظاً من مصطلحات الرسائل حينذاك نحو : يقبل الأرض . والمملوك والمملوكة . والباب العالى .
 (ز) أنه كان ينجح إلى المقدمات ، وإلى الإكثار من الأوصاف والترادف ، وهذه خصوصيات شائعة في رسائل عصره .

٣ - شعره

اشتهر صفي الدين شاعراً أكثر منه نائراً . وذلك لوفرة نتاجه الشعري وقلة نتاجه النثري . مع أنه ندر أن عرفنا فحلاً من فحول الشعر من معاصريه ، إلا وجدناه قد برز في كلا الفين الشعر والنثر ، كالحلبي وابن نباتة والشهاب بن فضل الله العمري .

(ا) تكسبه بالشعر

وقد أشرنا إلى دستوروه الذي سنه لنفسه منذ مطالع شبابه . وهو « أنه عاهد نفسه ألا يمدح كريماً وإن جل ، ولا يهجو لئيماً وإن ذل . وذلك للتنزه عن التشبه بذوى السؤال . والترفع عن التتبع لمثالب الرجال » .

وقد برّ صفي الدين فتمسك بنصف هذا الدستور فلم يتعرض لهجاء الناس . وقد حوى ديوانه أبياتاً قليلة ومقطعات يسيرة في باب الهجاء . ولكنه نظمها من باب امتحان قريحته ، واستجابة لاقتراح بعض الأفاضل عليه فحسب .

أما النصف الثاني من دستوروه هذا ، فإن الأيام كانت أقوى من إرادته ومن كبريائه ، فجرفته جرفاً إلى ميدان التكبس واحتراف الشعر . وذلك بعد ما نبا به المقام ببلده الحلة ، وشعر بالحاجة إلى الهجرة واتصاله ببني أرتق ، فكفلوه وأغدقوا عليه وأصبحوا أولياء نعمته ، فاضطر إلى مدحهم . وظلت هذه صناعته نحو أربعين عاماً ، طاف خلالها على ملوك غير الأرتقيين . مدحهم أيضاً ونال من عطاهم وصلاتهم . بل وشكا أحياناً من تأخر هذه الصلات . . .

غير أن صفي الدين - وإن اعترف في شعره بهيات هؤلاء الملوك ، دأب على تعليل مدحه لهم بأنه جزاء لهم وشكر فحسب . لما يبذلونه له . فلم يكن مدحاً

يبتغى كسباً ، ولم يكن ملحاحاً يصرح بطلب عطاء أو ابتغاء صلة . وإنما هو يجزى هباتهم المالية بهياته الشعرية . ولم ينس قط في مناسبات كثيرة أن يبرئ نفسه وشعره من مذلة التكسب ، وأن يسمو بهما إلى أفق من الفخر والزهو يعصمهما عن مظنة الاحتراف . وأنه لم ينزل حمى الملوك إلا نزول الصديق على الصديق : ولم يحل بهم إلا حلول الفرد بأهله . يقول :

وَلَا رَأَى لِي إِلَّا إِذَا كُنْتُ حَاقِنًا لِمَاءِ الْحَيَاءِ عَنْ سُؤَالِ بَنِي الدَّهْرِ^(١)
وَلَمْ تَنْ أَبْكَارُ الْمَدَائِحِ عِطْفَهَا تَجْلَى عَلَيْهِمْ فِي غَلَائِلَ مِنْ شِعْرِي^(٢)
وَلَمْ أَبْتَدِلْ عُرْسَ المَدِيحِ لِخَاطِبٍ لَوْ أَرْغَبُونِي بِالْجَزِيلِ مِنَ المَهْرِ^(٣)

(ب) دلالة شعره عليه وعلى عصره

رأينا في الفصل الثاني طرفاً من حياة صفي الدين ونشأته ببلده الحلة وتأثره بحوادث قومه ومنازعاتهم ووقائعهم مع أعدائهم . وكيف كان صفي الدين لساناً لهم ومشعلاً لحماستهم بل أحد قادتهم إلى النار والانتقام ، فارساً مقداماً ومقاتلاً مغامراً ، يجول بطريقه ويصول برمحه أو بسيفه .

وامتلاً شعره في هذه الحقبة بالفخر والحماسة ووصف الوقائع . فكان صدى صادقاً لما يجري من حوله من الأحداث . يقول :

وَلَمَّا أَبَتْ إِلَّا نَزَالَا كَمَا تَهُمُّ دَرَأْتُ بِمَهْرِي فِي صُدُورِ المَقَانِبِ^(٤)
فَعَلَّتْ شَمَّ الأَرْضِ شَمَّ أَنْوْفِهِمْ وَعَوَّدَتْ نَفْرَ التُّرْبِ لَمَّ التَّرَائِبِ^(٥)

(١) الحاقن : حقن ماء حياهه ، حفظ ماء وجهه .

(٢) أبكار المدائح : قصائده المصاه . العطف : الجانب - الغلائل : جمع غلالة وهي

شعار تحت الثوب .

(٣) عرس المديح : أشعار المديح الشبيهة بالعرس لجمالها . أو تشبيهه بليغ أضاف المشبه به للمشبه .

(٤) الككاة : الشجعان جمع كى . - درأ : دفع - المقانب : الذئاب الضارية ، ويريد

بها أعداءه .

(٥) شم أنوفهم : أى أنوفهم الشم الأبية المزهرة - الترائب : جمع تريبة وهي عظم الصدر .

يَطْرَفِ عَلَاً فِي قَبْضَةِ الرِّيحِ سَاحِحٍ لَهُ أَرْبَعٌ تَحْكِي أُنَامِلَ حَاسِبٍ (١)
 وَمَسْرُودَةٍ مِنْ نَسَجِ دَاوُدَ نَثْرَةٍ كَلَمَعِ غَدِيرِ مَآوِهِ غَيْرُ ذَائِبٍ (٢)
 وَأَسْمَرَ مَهْرُوزِ المَعَاظِ ذَائِلٍ وَأَبْيَضَ مَسْنُونِ الفِرَارِ بْنِ قَاضِبٍ (٣)

ويهب به قومه فيأبى إلا أن يلببهم وأن يتقدمهم ، وأن يكون أول من يصطلي
 بنار الحرب :

لَمَّا دَعَعْنِي لِلنَّزَالِ أَقَارِبِي لَبَاهُمْ عَنِّي لِسَانُ المُنْصُلِ (٤)
 وَأَبَيْتُ مِنْ أَنِّي أَعِيشُ بِعَزْمِهِمْ وَأَكُونُ عَنْهُمْ فِي الحُرُوبِ بِمَعْرَلٍ (٥)
 وَأَفَيْتُ فِي يَوْمِ أَعْرَ مَحْجَلٍ أَغَشَى الهِمَاجَ قَلَى أَعْرَ مَحْجَلٍ (٦)
 ثَارَ العَجَاجُ فَكُنْتُ أَوَّلَ صَائِلٍ وَعَلَا الضَّرَامُ فَكُنْتُ أَوَّلَ مُضْطَلِّ (٧)

وعلى هذا الفرار مضى صنفي الدين مفتخراً بنفسه وفروسيته ، مزهوا بقومه
 ولابأهم :

إِنَّمَا مَفْخَرِي بِنَفْسِي وَقَوْمِي وَقِنَائِي وَصَارِمِي وَجَوَادِي
 ولما نال من أعدائه وأوقع بهم ، غنى بذلك وشدا ، ونظم قصيدته البارعة
 « سلى الرواح العوالي » . . .

- (١) الطرف : بكسر الطاء الفرس . وهو في البيت يصفه بالسرعة وتتابع قوائمه في عجلة .
 (٢) المسرودة : الدرع - من نسج داود : يعنى من صنعه ، كناية عن قوتها ومتانتها . نثرة :
 الدرع السلة المليس أو الواصة .
 (٣) الأسمر - الرمح - والدائل : الضامر اليابس القوي . المعاطف : جمع مطف وهو
 الرداء . والمراد الجانب . والأبيض : السيف - والفرار : الحد - والقاضب : القاطع .
 (٤) النزال : المنازلة والقتال - المنصل : بضم الميم والصاد ، السيف .
 (٥) معزل : في مكان متعزل بعيد عنهم ، أى لا يشاركونهم في حروبهم .
 (٦) الأغر : الفرس في جهته غرة وهى بياض فيها . والأغر من كل شيء الأبيض . والمجمل :
 الفرس في قوائمه بياض - واليوم الأغر المجمل المشهور لما فيه من الأعمال الواضحة البارزة ، كأنه
 الفرة أو التحجيل .
 (٧) العجاج : النبار ، يريد غبار الحرب . والضرام : الإشعال ، يريد اشتعال الحرب .
 المضطل : المستغرق بالنار ، يريد أنه أول من حارب وحمل أضرار الحرب .

غير أن الأيام تقلبت به وتحولت عنه واستطال أعداؤه عليه وعلى قومه ،
وسمّوه لكثرة ما يهجوم ويؤلب عليهم وحاولوا قتله — وقد أصبحت لهم الولاية في
بلده — فلاذ بالفرار من الحلة ، وفي نفسه مرارة ، وفي لسانه شكاية . لقد أرسل إلى
أحد بني عمه من ماردین ، يقول وهو بين الأمل واليأس ، معتذراً عن عار الفرار :

صَبْرًا عَلَيَّ وَعَدِّ الزَّمَانِ وَإِنْ وَتَى فَعَسَاهُ يُصْبِحُ تَانِيًا مِمَّا جَنَى (١)
لَا يُجْزِعُ عَنكَ أَنَّهُ رَقَعَ الْمَدَى فَلَسَوْفَ يَهْدُمُ عَن قَلِيلٍ مَا بَنَى

ويقول :

... ليس الفرارُ عليَّ عاراً بعدمَا شهدوا بيأسي يومَ مُشْتَبِكِ القَنَا (٢)
إِنْ كُنْتَ أَوَّلَ مَنْ نَأَى مِنْ أَرْضِهِمْ قَدْ كُنْتُ يَوْمَ الْحَرْبِ أَوَّلَ مَنْ دَنَا

ثم رحل صفي الدين إلى بني أرتق وانخرط في صفوف رجالهم وحاشيتهم ،
ورفعوا مكانته وأفاضوا عليه عطاء وهبة ، فانساق إلى مدحهم وأشرك ديوانه بشكر
منهم . وبذل لهم الرأي والنصيحة في أمور دولتهم ، وسجل ذلك في شعره .

وكان بين هذا وذاك يختلف إلى أصدقائه أو يختلف إليه أصدقاؤه ، فينال
من لذة الحياة ومتعتها ما شاءت نفسه من مبادل زمانه . ذلك الزمان الذي انتشر
فيه استخدام الرقيق غلماناً وجوارى في البيوت ، وأقبل الناس أو أقبل كثير منهم ،
على الشراب والمنادمة وسماع الغناء وما إلى ذلك من مجالس الأانس والسمر .
فخب صفي الدين مع هؤلاء ، ونال من ملذات الحياة طرफاً ، وسجل مشاعره إزاء
ذلك في شعره ، فكان مرة غزلاً طلياً بالمذكر والمؤنث ، وآنا وصفا للخمر والسقاة
والندمان ، وطوراً سعياً إلى مجالس الغناء والمجون ، وحيناً استدعاءً للأصدقاء لقضاء
الليالي الحمراء . وسجل ما استتبع هذه الحياة من قرب وبعد ، ووصل وصد ،
وتشوق وأنين ، وتذكر وحنين ، وتوبة ونكوص . وكان هذا تسجيلاً صادقاً صادراً
من مشاعره وأحاسيسه بعيداً عن التكلف والمراعاة ، تومض خلاله من آن لآن ،

(١) وقد بنى : أبطأ يبطن .

(٢) مشتبك القنا : اشتباك الريح وقت الحرب .

خطرات قلبه ونبضات فكره ، حكمة بالغة ، أو مثلاً رائعاً ، أو رأياً ناصحاً ،
أو نصيحة مجربة ، إلى غير ذلك .

قال يصف مغنياً :

وَقَدْ تَرَمَّمْ شَادٍ صَوْتُهُ غَرْدٌ كَأَنَّهُ نَاطِقٌ مِنْ خَلْقِ شُرُورِ^(١)
شَادٍ أَنَامِلُهُ تُرْضِي الْأَنَامَ لَهُ إِذَا شَدَا وَأَجَابَ الْبِمِ بِالزَّيْرِ^(٢)
ويصف حامل الكأس :

وَحَامِلُ الْكَأْسِ سَاجِي الطَّرْفِ ذُوهِيفِ صَاحِي الْوَاحِظِ بِنْيِ عِطْفِ نَحُورِ^(٣)
كَأَنَّمَا صَاغَهُ الرَّحْمَنُ تَذْكَرَةً لِمَنْ يَشْكُكُ فِي الْوِلْدَانِ وَالْحُورِ
ويصف الخمر في يده :

يُدِيرُ رَاحًا بِسَبِّ الْمَرْجُ جَذْوَتَهَا فَلَا يَزِيدُ لَهَا غَيْرَ تَسْعِيرِ^(٤)
نَارًا بَدَتْ لِكَلِمِ الْوَجْدِ آتَسَهَا مِنْ جَانِبِ الْكَأْسِ لِأَمِنْ جَانِبِ الطُّورِ^(٥)
ويتغزل في ساق من الغلمان :

يَطُوفُ عَلَى الرَّفَاقِ مِنَ الْحَمِيَا وَمِنْ خَمْرِ الرُّضَابِ بِمُسْكَرَيْنِ^(٦)
إِذَا يَجْلُو الْحَمِيَا وَالْمُحِيَا شَهْدَنَا الْجَمْعَ بَيْنَ النَّيْرَيْنِ^(٧)

(١) الشادى : المغنى - صوته غرد : أى كصوت الطائر حين يرفع صوته - الشرور :
طائر غرد .

(٢) الزير : النقيق من الأوتار أو أحدها . - الم : الوزر الغليظ .

(٣) ساجى الطرف : ساكن العين . - الهيف : ضمير البطن ورقة الحاصرة . - العطف الجانب

(٤) يشب : يشعل .

(٥) الكلم بمعنىين هما المكلوم المجرع ، والنزى يبادل الكلام . وفى الكلمة استخدام .

وفى البيت ضرب من الاقتباس .

(٦) الحميا : الخمر - الرضاب : الريق .

(٧) النيران : الشمس والقمر .

وهكذا ترى أن شعره صوراً أكثر جوانب حياته، كما صور بعض جوانب عصره. ولكنه - بلا ريب - قد غفل عن تصوير كثير من جوانب هذا العصر. لقد غفل عن وصف هذه الحياة المستبدة الظالمة التي كان يجيهاها ملوك عصره، حياة التجبر والصلف، وحياة التبذير والسرف، وحياة الفرقة والتنازع، تلك الحياة التي وقعت الشعوب العربية فريسة لها ولم تملك دفع السوء عنها.

لقد خلا شعره من النقد السياسي الذي ربما كانت تكون له عاقبة نافعة فيمن حوله. وخلا شعره من النقد الاجتماعي الإصلاحى الذى يصف العادات الضارة والتقاليد المرذولة في زمانه - وما كان أكثرها وأفدحها - ومنها ما نفشى في دواوين الدولة من سرقات ورشوة وطائفية. وما اجتاحت حياة الأسر الفقيرة المتوسطة من فقر وجهل ومرض وبأس.

إن شاعراً متواضعاً كشرف الدين البوصيرى المتوفى عام ٥٩٦ هـ، خير في هذا الباب من صفي الدين وابن نباتة وأضرابهما، ممن غفلوا عن وصف حياة شعوبهم وما يكتنفها من أحداث وملايسات، وما يسوتها من ظلم وجور. وما يرحقها من ضرائب ومصادرات، وما يثقلها من حرمان واستغلال. وقنعوا بالتزلف إلى الحاكمين المستبدين والسعى إلى مودتهم والدوران في فلكهم والتماس فئاتهم، وبذلك خدعواهم عن أنفسهم وعن حقيقة ما يصنعون، فكانوا بذلك في جملة الخادعين.

إن البوصيرى أجزأ شعراء تلك الحقبة على تسجيل هفوات قومه شعباً وحكاماً وموظفين. لقد وصف في صراحة، ما نفشى بين دواوين الدولة من ألوان الفساد ناقداً لها ناعياً عليها، وسجل ما يجيق بالأسر من ضروب البؤس والتنازع. ولو أن رجلاً كالخلى أو ابن نباتة، تنبه خاطرهم إلى مثل ما تنبه إليه البوصيرى لكان لشعره قيمة ونفاة لا تعد لهما قيمة التاريخ ولا نفاسته.

(ج) صفي الدين بين التقليد والتجديد

صفي الدين الخلى، في جملته، شاعر مقلد. بمعنى أنه دار في فلك المتقدمين لفظاً وغرضاً ومعنى وتصويراً. ولكن عند الحديث تفصيلاً لا نرى بدءاً

من أن نشير إلى نواحيه الجديدة ، وأن نبرزها للعيان واضحة قوية . وصنى الدين لم يكن تنقصه المقدرة على التجديد وابتداع الأساليب وابتكار الأغراض مع روعة تصوير معانيه وخيالاته ، لو أنه أراد ذلك وتعده . فقد كان واسع الحيلة قديراً على اللغة ثرياً من اللفظ كثير الترحال والأسفار، مما يكسبه تجربة وخبرة ، ويزيده فراهة وحقاً . كما كان وثيق الصلات بكثير من عليه جيله . ولقد دخل إلى ميدان الشعر حرّ النفس أيباً على التكب مزهواً بقومه وأحسابهم وأنسابهم ، غير فخور بالشعر إلا باعتباره أداة منافحة وسلاحاً من الأسلحة المسنونة ضد الأعداء . وجابته في شبابه حوادث قومه ووقائعها مع أعدائها ، فأثارت حماسه ، وأطلقت سوط لسانه . فاندفع ناراً حامية على أعدائه ، متتابع الأبيات متخير اللفظ محدود الهدف ثابت الرمية .

من شأن مثله حينذاك أن يكون مجدداً بفطرته ونشأته . وحسبه مؤدياً إلى إلى التجديد لإيمانه بدوره الذى يؤديه بلسانه ، بل وبلسانه فى صفوف قومه . وإيمان الشاعر برسالته أقوى دعامة تدفعه إلى التجديد لأنه حينئذ يصدر عن دخيلة نفسه وعن تجاربه الشخصية .

والحق أنك حينما تقرأ حماسيات صنى الدين تشعر أنها له وحده ، انتزعها من بيئته ومن حوادث قومه ومن تأثره بهما . يقول :

لَقَدْ هَدَبْتُ يَظْلَةَ الرَّأْيِ وَالنَّهْيِ إِذَا هَدَبَتْ غَيْرِي ضُرُوبُ التَّجَارِبِ (١)
وَأَكْسَبَنِي قَوْمِي وَأَعْيَانُ مَقْشَرِي حِفَاطَ الْمَعَالِي وَابْتِدَالَ الرَّغَائِبِ (٢)
سَرَاةً يَقْرُؤُ الْحَاسِدُونَ بِفَضَائِهِمْ كِرَامُ السَّجَايَا وَالْعُلَى وَالْمَنَاصِبِ (٣)

وإلى جانب شعره الحماسى وصدقه ، ترى شعره السياسى فى دولة بنى أرتق . إنه قد يندفع فيه اندفاع السهم إلى الرمية ، لا يابى على شىء . وتشعر به نابعاً

(١) النهى : جمع نهيه وهى العقل .

(٢) حفاظ المال : المحافظة عليها والتمسك بها - وابتدال الرغائب : هجرها وعدم الاكتراث بها .

(٣) السراة : السادة والروس .

من صميم فؤاده وأعماق ضميره ، وتراه فيه يركض ركضاً قوياً يداور المعنى ويقبله على جميع صوره البيانية المستطاعة تقريراً له في النفوس . ومن ذلك أبياته الحكيمة التي جرت مجرى الأمثال حيناً أخذ يحرض الملك الصالح على أعدائه المغول ويستنهض همته إلى قتالهم ومدافعهم وعدم التراخي في مناجرتهم .
(د) مذهبه في الشعر وأسلوبه :

سمع أحد الفضلاء شعر صفي الدين فاستحسنه ، وقال : « لا عيب فيه سوى قلة استعماله للغة الغريبة » . وهو يعني بذلك ، غريب الكلمات . فكتب إليه صفي الدين قصيدة في أولها :

إِنَّمَا الْحَيْزُبُونُ وَالذَّرْدَيْسُ وَالطَّخَا وَالنَّقَاخُ وَالْعَلَطِيْسُ^(١)
وَالْحَرَاجِيْبُ وَالشَّقْحَطَبُ وَالصَّقَبُ وَالْعَنْقَفِيْزُ وَالْعَنْتَرِيْسُ^(٢)
وَالنَّطَارِيْسُ وَالْعَفْنَقْسُ وَالْعَفْلَقُ وَالْجَرْبَضِيْسُ وَالْعَيْطَامُ^(٣)
وَالسَّبِيْتِي وَالْحَقْصُ وَالْهَيْتِيُّ وَالْهَجْرِيْسُ وَالطَّرْفِيْسَانُ وَالسَّطُوْسُ^(٤)

(١) الحيزبون : العجوز أو التي لا خير فيها - الدرديس : الداهية والشيخ والعجوز الغاية . - الطخا : قصره من الطخاه وهو السحاب المرتفع أو الكرب على القلب . - النقاخ : الماء البارد العذب والنوم والأمن . - العلطيس : الأملس البراق .

(٢) الحراجيب : جمع حرجوج كمصفور ، الناقة الجسيمة الطويلة . الشقحطب : وزن سفرجل ، الكبش له قرنان أو أربعة كل منهما كشق حطب - الصقعب : الطويل . العنقفيز : قبل : العنقزة أن يجلس الرجل محتبياً ثم يضم ركبتيه وفخذه . العنتريس : الناقة الصلبة الشديدة - الداهية .
(٣) النطارييس : جمع نظرييس بكسر أوله وهو الظالم المتكبر العنقفس . الثيم . العفلق : المرأة الحرقاء السيمثة المنطق . العيطوس : التامة الخلق من الإبل أو المرأة الجميلة أو الحسة الطويلة . الجربضيض : قال في اللسان : الجربض العظيم الخلق .

(٤) السبتي : الجريء والنمر وجمعه سبانت . - الحقص : الشد ، يقال : سبقني حقصاً وقبضاً وشدأً كلها بمعنى واحد - اهيق : وإهيقم الدقيق الطويل ، وهو الظليم أيضاً ذكر النعام - الهجرش : الهجرشة الناقة الطويلة - الطرفسان : والطرفاس القطعة من الرول . والنظلمة . - السطوس : يفتحتن فضم ، شجرة كالخيزران تكون بالجزيرة ، ورأس التصاري بالرومية .

لُغَةً تَنْفِرُ الْمَسَامِعُ مِنْهَا حِينَ تَرُوى وَتَشْمِزُ النُّفُوسُ
وَقَبِيحٌ أَنْ يُدْ كَرَ النَّافِرُ الْوَحْشِيُّ مِنْهَا وَيُتْرَكَ الْأَمَانُوسُ . الخ

وقد أصبحت هذه الأبيات في ألسنة من يتعاطون الأدب كثيرة الذكر .
ولا سيما عند الرغبة في التندر والسخرية بمن يحنون نحو الغريب .

ولقد رسم الشاعر لنا في هذه الأبيات طريقته في نظم الشعر ، وتتلخص في
توخي السهولة والوضوح واستعمال الألفاظ والعبارات المألوفة المتداولة ، والنأي عن
الغريب غير المألوف . وقد بين ذلك صراحة في مقدمة شرح بديعته ، على نحو
ما بينا .

وقد ترسم صني الدين هذه الطريقة في شعره . وكانت هذه النزعة هي النزعة
الغالبة على أساليب الشعراء في عصره .

ولكن من الحق أن نذكر أن صني الدين كان شاعراً واسع المدى بعيد الآفاق .
قديراً على تنويع نزعاته في الأغراض والأساليب . فإذا كان لكل شاعر
أسلوب يسمو إلى مستواه ، وقلما يزايله إلا لطاريء عارض ، فإن لصني الدين
مستويات من الأسلوب يستطيع أن يزايل أحدها إلى الآخر عامداً مختاراً متى أراد
ذلك . فيسمو إذا شاء السمو ، ويرسب إذا أراد الرسوب .

كان صني الدين يعيش في بيئات أعجمية أو غلبت عليها العجمة ، والتأثت
فيها العربية التيناً كبيراً . وانحطت في الحملة أساليب شعرائها وبعُدت عن
الجزالة ، وغلبت عليها الصنعة اللفظية والحلية البديعية ، حتى أصبحت قواعد
النقد خاضعة لها ومستمدة منها . وأصبح إتقان هذه الصنعة بقيودها ، معياراً
للنبوغ والمقدرة . وبقدر ما يتنوع الشاعر فيها وابتدع في قيودها ، ويجيد مراعاة
قواعدها ، يقدر نبوغه ويُشهد له . مع أن هذه القيود قد تبدو كلفاً قبيحاً في
وجه الشعر .

فإذا يصنع شاعر كصني الدين ، يعيش في هذا المحيط ؛ وهو تواق إلى أن
يعرفه معاصروه ويفهموه ويرددوا شعره ليرفعوه إلى المنزلة التي يستحقها . ولا يرموه

بعى أو حصر أو ضيق افتنان . ثم هو حريص كل الحرص على أن يحى دولة الشعر ويذود عنها الأدعياء الأراذل ، وإن كان لا يتخذ منه مدداً للفخر . . .

وَمَا كُنْتُ أَرْضَى بِالْقَرِيضِ فَضِيلَةً وَإِنْ كَانَ كَانِمْمَا تَرْتَضِيهِ الْأَفْضَلُ
وَلَسْتُ أَذِيْعُ الشُّعْرَ خِرًا وَإِنَّمَا مَحَاذِرَةٌ أَنْ تَدْعِيَهُ الْأَرَاذِلُ

وهو إلى جانب ذلك قد كوّن له اطلاعه على اللغة وبلاغتها وآدابها معجماً واسعاً من اللفظ والعبارة يعاونه على تصوير معانيه في غير كلفة ودون مشقة .

تجمعت على صنى الدين - إذن - عوامل دفعته إلى أن يكون متنوع الأسلوب ، يجزل تارة ويرصن ، ويرق مرة ويعذب . ويسهل طوراً ويتضح ، ويُعرب حيناً ويُغمض . ويتقيد آنأً بالبديع ، وينفلت من قيوده آنأً آخر . وهو في كل حالاته - أو معظمها - وفي جميع مستوياته - أو جلها - عامد مختار لا يعرفه نصب ولا يصيبه جهد ، لأنه قادر بالطبع ، وقادر بالصناعة ، وإن كان من بين ما يصنعه ما يثود قارثه . لذلك ترى له الشعر الرصين الجزل ، والشعر الرقيق السهل . وله الشعر السمع الصادر عن فطرة وطبع سليم ، والشعر المتكلف الذى تتقله مبالغات الصناعة .

والعجيب أنك إذا نشدت شعره الرصين الجزل قد تجده مبالغاً في رصانته وجزالته حتى يلحق السابقين . وإذا نشدت شعره البديعى قد تجده مغالياً فيه حتى يسبق المعاصرين .

لقد أغرق صنى الدين في بديعه إغراقاً شديداً في كثير من شعره . ولو أنه ترك نفسه على سجيّتها ، ولم يحملها على وعشاء البديع ومتابعة مناهج عصره في الأسلوب ، لكان لنا منه شاعر فحل لا يقل فحولة عن المتقدمين .

ودليلنا على ذلك كثير من شعره السمع الذى أشرفت ديباجته وتبلجت عبارته واتسقت موسيقاه وتجلت معانيه .

يقول متغزلاً :

وَلَا حَ كَالصَّارِمِ الْمَصْفُولِ أَخْلَصَهُ تَدْبِعُ الْقَيْنِ مِنْ شَيْنٍ وَمِنْ كَلْفِ (١)
 وَجَالٍ فِي وَجْهِهِ مَاهِ الْحَيَاةِ كَمَا يَجُولُ مَاهِ الْحَيَاةِ فِي الرُّوضَةِ الْأَنْفِ (٢)
 وَوَلَدَ الْحُسْنُ فِي أَحْدَاقِهِ حَوْرًا وَضَاعَفَ الدَّلُّ مَا بِالْجِسْمِ مِنْ تَرْفِ (٣)
 أَضْحَتَ بِهِ حِدَقُ الْحَسَادِ مُحْدَقَةً تَرَنُّوْا إِلَيْهِ بِطَارِفٍ غَيْرِ مُنْطَرِفِ (٤)
 وَظَلَّ كُلُّ صَدِيقٍ يَرْتَضِي سَخَطِي فِيهِ وَكُلُّ شَفِيقٍ يَرْتَجِي تَلْفِي
 يَا لَلرَّجَالِ أَمَا لِلْحُبِّ مُنْتَصِرٌ لِضَعْفِ كُلِّ حُبِّ غَيْرِ مُنْتَصِفِ
 مَا أَطْيَبَ الْعَيْشَ لَوْلَا أَنْ سَالِكُهُ يُمَسِّي لِأَسْنَمِ كَيْدِ النَّاسِ كَالْهَدْفِ

هنا شعر رقيق جزل في آن . عذب سائق . قل بديعه وخف ، فليح و لطف .
 واو نسج صفي الدين دائماً على هذا المنوال ، لبرئ مجموع شعره من كلفه ،
 وسلم من تعسفه . ولكنه - كما ذكرنا - أغرق في بديعه إغراقاً شديداً ،
 وإغراق العامد القادر المختار الذي أراد أن يتفوق على أقرانه في هذا الميدان ويشأهم
 فيما أولعوا به من شعر الصنعة . فجنس وطابق واقتبس وضمن . وقابل ونشر وطوى
 وقسم ، وتعمد التشبيه والاستعارة . وتلاعب بالحروف ، فأهمل وأعجم ، والتزم ما لا
 يلزم . وبنى قصيدته أحياناً على لفظ واحد يردده في روى كل بيت مع اختلاف
 المعنى . إلى غير ذلك من ضروب البديع .

ثم ليس هو السابق إلى ابتكار البديعيات ، وناظم أول بديعية . ثم ليس
 هو مخترع لزومياته في الأرتقيات . وإليك أمثلة من تكلفاته :

- (١) الصارم : السيف - أخلصه : جمعه خالصاً أي أجاد صناعته -
 (٢) الروضة الأنف : البستان الذي لم يرع أي لم تؤخذ ثماره ولا أزهاره ونباته .
 (٣) الأحداق جمع حدقة وهي سواد العين ويريد العين - الحور : شدة بياض العين مع شدة
 سوادها . - الدل : الدلال التدل وهو أن المرأة تجرؤ على زوجها كأنها تخالفه وليس بها خلاف .
 الترف : ضياع النعمة . والمراد بها لين الجسم ورقته .
 (٤) محدقة : محيطة - والظرف العين - المنظر : المنفض .

قال في الجناس الخطى وهو الذى يتشابه فيه كل لفظين متجاورين فى رسم حروفهما وقد يختلفان فى الحركة والنقط :

سَلَّ سَلْسَلَ الرَّيْقِ لِمَ لَمْ يَزَوْحَرَ ظَلَمًا بَلَّ بَلْبَلَ الْقَلْبَ لَمَّا زَادَهُ أَلَمًا^(١)
 قَدَّ قَدَّ قَدْ حَبِيْبِي حَبَلٌ مُصْطَبِرِي إِنْ أَنْ أَنْ أَجْتَنِي جُرْمًا فَلَاجِرْمًا. الخ^(٢)

ويلاحظ فى البيت الأول أن بكل شطر من شطريه لفظين أحدهما نصف الآخر . وقد تكرر مثل ذلك فى غيره من أبيات القصيدة التى بلغت خمسة عشر بيتاً .

ومن أبيات له مهملة الحروف - غير منقوطة - :

كَمْ سَاهِرٍ حَرَمَ كَمَسَ الْوَسَادُ وَمَا أَرَاهُ سُوءُهُ وَالْمُرَادُ
 مَا سَهَرُ الْوَالِهِ مُنْطَرٍ لَهُ وَصَلًا وَلَوْ دَاوَمَ طُولَ السُّهَادِ... الخ

ومن أبيات له متصلة الحروف :

سَلَّ مُتَلَفِي عَطْفًا عَسَى يَتَعَطَّفُ فَلَقَدْ قَسَا قَلْبًا فَمَا يَتَلَطَّفُ
 ظَبِي تَحَكَّمَ بِي فَسَلَطَ جَفْنُهُ سَقَمًا لِحَسْبِي بَعْضُهُ لِي مُتَلِفٌ... الخ

وقد بلغ به فرط تلاعبه بالحروف والكلمات أن كان يُدخل فى أبياته كلمات تركية أو فارسية ، مع قدرته على استخدام مرادفها العربى . وكان ذلك ليستغل هذا المرادف فى بعض معانيه المأجنة ، مع التعمية باللفظ التركى أو الفارسى .

ونظم قصيدة حشاها - مع طولها - بعشرات من الكلمات الأعجمية يصف فيها الأعيب طائفة الغرباء المحتالين الملقبين « بآل ساسان » ، وتسمى هذه القصيدة « الساسانية » .

ليس معنى ذلك أن شعره البديعى التاث كله . بل إن ما التاث إنما هو جزء منه فحسب ، بدا كالكلف فى صفحة البدر ، وكالغناء فى مجرى السيل .

(١) السلسل : الماء العذب والخمر الآيئة . - وببلبه : هيجه وحركه .

(٢) الجرم : يضم أوله الجرمة والذنب . ولا جرم : حقاً ، ولا بد .

ومن أشعاره البديعية مارق وراق ، وحلا في المذاق . فمن جناسه مثلا :
 حَدِيثُ النَّاسِ أَكْثَرُهُ مُحَالٌ وَلَكِنْ لِلْعِدَى فِيهِ مَجَالٌ
 ومن طباقه :

الْوَجْهُ مِنْكَ عَنِ الصَّوَابِ يُضَايِ وَإِذَا ضَلَلْتُ فَإِنَّهُ يَهْدِينِي (١)
 وَتَمَيَّنِي الْأَلْحَاطُ مِنْكَ بِنَظْرَةٍ وَإِذَا أُرِدْتَ بِنَظْرَةٍ تُحْيِينِي
 ومن تضميناته :

زُوجَ الْمَاءِ بَابِنَةَ الْعَنْقُودِ فَانْجَلَّتْ فِي قِلَانِدٍ وَعُقُودِ
 قَتَلْتُ بِالْمَزَايِجِ ظُلْمًا فَقَالَتْ « كَمْ قَتِيلٍ كَمَا قَتَلْتُ شَهِيدٍ » (٢)
 ومن اقتباساته :

قُلُوبِنَا مُودَعَةٌ عِنْدَكُمْ أَمَانَةٌ يُمَجَّزُ عَنْ حَمَلِهَا
 إِنْ لَمْ تَصُونُوهَا بِإِحْسَانِكُمْ « أَدْوَا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا » (٣)

وهكذا، على أن صنئ الدين كان أكثر احتفالاً بالجناس من ابن نباتة مثلا، كما أنه لم يُجد لإخراج التورية كما أخرجها ابن نباتة . مع أن التورية كانت أرفع أصباغ البديع وأثمنها لدى أدباء العصر . قال ابن حجة الحموي (٤) : « إن الشيخ صنئ الدين كان أجنبيا فيها -- يعنى التورية -- ولهذا لم أنظمه في سلك الجماعة الذين مشوا في نظم التورية تحت العلم القاضلي (٥) والعلم النبائي (٦) . وغايته أنه رضى بالشعر الساذج المنسجم . وتعرض إلى التورية في بعض المواضع ولكن

(١) الطباق بين يضل ويهدى - وبين تميت وتحيى .

(٢) قوله : كَمْ قَتِيلٍ . . . إلغ من كلام المتنبي .

(٣) وقوله أدوا الأمانات . . . إلغ اقتباس من كلام القرآن الكريم .

(٤) انظر كتابه « كشف اللثام » .

(٥) يقصد طريقة القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى .

(٦) يقصد طريقة ابن نباتة المصرى .

سبكها في غير قوالها لأنها لم تكن في طباعه .

وابن حجة كان ناقداً متعصباً للتورية ولطريقي الفاضل وابن نباتة فيها .
وينعى على الجناس والمولعين به ، إلا إذا امتزجت به التورية وأخرجاً مخرجاً واحداً
في لفظ يجتمعان فيه .

وفي جملة ما عاب شعر صني الدين - مع رسوخ قدمه في اللغة والبلاغة -
ما وقع فيه من أخطاء لغوية ، وما أكثر منه من الضرورات الشعرية ، وما
انساق إليه من حشو أو ضعف نسج ، ونحو ذلك ، مما لا يسلم منه شاعر ،
وبخاصة من شعراء زمانه . فن ذلك قوله :

أُومِتْ إِلَىٰ مُشِيرَةٍ أَنْ لَا تَخَفْ وَأَبْشِرْ فَإِنَّكَ فِي ذُرَا الْعَالِيَاءِ

وفي البيت سهل همزه « أومأت » ثم حذف الألف كأن الفعل معتل الآخر .
وفيه أيضاً وصل همزة « أبشر » وهي همزة قطع . وقال :

بُعْدُ الْوَفِيِّ كَقُرْبِهِ إِذْ وَدُّهُ بَاقٍ كَمَا قُرْبُ الْمَلُولِ كَبُعْدِهِ

وفي البيت ضعف نسج أدى إلى غموض معناه أو إلى ضيقه عن أداء المعنى
والشاعر يريد القول إن الوفي ملخص في قربه وبعده لأن وده باق في الحالتين . ولهذا
يتساوى بعده وقربه . وإن الملول غير ملخص في بعده أو قربه لأنه ضئيل الود
في الحالتين ولهذا يتساوى أيضاً قربه وبعده .

(هـ) أوزانه وقوافيه

طرق صني الدين بحور الشعر العربية المتداولة الماثورة ، كاملة ومجزوءة .
ونظم منها أكثر قصائده الطويلة والقصيرة ، ومقطعاته .

وقد احتفل بعض الاحتفال بالتسميط والتوشيح والرجز . ولم يخرج في جملتها
عن الأوزان المذكورة ، مع تنوع قوافيها .

ومن تسميطه - علي سبيل المثال - مسمطته التي ضممتها أبياتاً من قصيدة

السموئل التي مطلعها :

إذا المره لم يدنس من الأوم عرضه فكل رداء يرتديه جميل^(١)
ومسقطه التي ضمنها أبياتاً لقطرى بن الفجاءة التي منها :

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لن تراعى^(٢)
ومسقطه التي رثى بها الملك المؤيد صاحب حماة ، والتي ضمنها أبياتاً من قصيدة
ابن زيدون التي مطلعها :

أضحى التناي بدلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
ومن مسقطه هذه قوله :

كان الزمان بلقياًكم يمنينا وحادث الدهر بالتفريق بينينا
فعدما صدقت فيكم أمانينا أضحى التناي بدلاً من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

والتسميط - كما رأيت - زيادة ثلاثة أشطر أولى قبل شطرى البيت المضمن ،
من وزنه ومن روى شطره الثانى .

ومن توشيحه - على سبيل المثال أيضاً - موشحته التي مدح بها الملك
المنصور الأرتقى ومطلعها :

خذ من الدهر لي نصيب وأغنم غفلة القدر
ليس طول المدى نصيب صفو عيش بلا كدر
فاجل لي كاعباً عروس لم ترعها يد الزاج^(٣)
نشرها عطر الكئوس وكسا نورها الزجاج . . . الخ

(١) العرض : كل ما يجب على المره حمايته .

(٢) طارت نفسه شعاعاً : تفرقت جزءاً - ويحك : كلمة رحمة . لن تراعى : لن تخافى
ولا تجزعى .

(٣) الكاعب : التي كعب وبرز نهدها ، وهو هنا يشبه بها الخمر . المزاج : الخلط
والقتل بالماء .

وموشحته التي مدحه بها أيضاً ووصف فيها رحلة صيد وما فيها من الأطيبار .
وموشحته التي مدح بها الملك الأفضل بن المؤيد صاحب حماة . ووصف فيها
رحلة صيد معه - أيضاً - وما فيها من الأطيبار .
والتوشيحاح لها نظم كثيرة وقصاهاها تنوع قوافيها على شكل من الأشكال ،
مع توافق ما ، بينها .

وتتجلى عنايته بالرجز في أراجيزه المتعددة التي وصف فيها البازي والصقر
والفهد والكلب ، والصيد بها جميعاً . وأرجوزته في وصف ليلة قضاها بمصاحبة
جواده . وأرجوزته في وصف يوم قضاها في صيد النعام .
على أن صنئ الدين حرر نفسه بعض التحرير من قيود الوزن والقافية المرعية ،
وذلك في قليل من المناسبات ، فلفق فيها بين بعض الأوزان ، أو خرج عليها
جملة .

ومن ذلك موشحة مدح بها الصالح الأرتقي وهنأه بعيد الفطر عام ٧٤١ هـ .
قال في مطلعها :

لما شَدَّتِ الوُرُقُ عَلَى الأَغْصَانِ بَيْنَ الوَرَقِ^(١)
مَآتَ طَرَبًا بِهَا غُصُونُ البَانِ كَالْمُغْتَبِقِ^(٢)

ومن ذلك موشحة نظمها من الدوبيت ، وهي غزلية قال في مطلعها :

عَيْنُ حَيِّيْ أَعِيذُهَا بِاللَّهِ مَا أَوْقَعَنِي فِي عِشْقِهِ إِلهِي
مُدَّ قَاطِعِي وَصَدَّعَنِي لِأَهِي أَجْرِي عَبْرَتِي وَأَذْكَى زَفْرَتِي^(٣)
أَمْسَيْتُ وَطَيْبُ النُّومِ عَنْ أَجْفَانِي فَانِي
لَمَّا تَجَّافَانِي أَرَعَى النُّجُومِ^(٤)

وعلى هذا النسق سار في بقية الموشحة .

(١) الورق : الحمام . (٢) المغتبق : شارب خمر المساء .

(٣) أذكى زفرتي : نشرها وكثرها .

(٤) أرى النجوم : كناية عن السهر .

ومن ذلك أيضاً موشحة اخترع وزنها واقترحه عليه السلطان المؤيد صاحب حماة ، امتحاناً لمقدرته فقال :

بِي ظَبِي حَمَى وَرَدَّ خَدَّهُ صَارِمُ اللَّحْظِ قَاسِ غَرَّتِي مِنْهُ رِقَّةٌ أَخْلَدُ وَاللَّفْظِ (١)
ذُو فِرْعٍ بِمَحْفِصِ اعْتِنَاقِ أُرْدَانِهِ مَحْظِي مَالِي لَمْ أَنْلِ حَظَّهُ كَمَا قَدَّ حَكِي حَظِّي (٢)
بَدِيعُ الْمَعَانِي مِنَ الْأَقْمَارِ أَحْسَنُ
إِلَيْنَا أَسَا لِحَظُهُ وَاللَّفْظُ أَحْسَنُ (٣)

وعلى هذا النسق أيضاً سار في بقية موشحته . ووزنها ملفق ، كما ترى ، من أوزان عدة .

(و) فنون شعره

قسم صفي الدين ديوانه إلى اثني عشر باباً ، في كل منها فصلان أو أكثر . ومجموع فصوله ثلاثون . وكل فصل في فن على حدة . فجملة فنونه ثلاثون فناً أو غرضاً . وقد سبق لنا الإشارة إلى هذه الأبواب .

غير أننا نريد هنا القول إنها في جملتها تنطوي تحت سبعة فنون رئيسية هي : الفخر والحماسة . والمدح ومنه المديح النبوي . والغزل ومنه المحجون . والوصف ومنه الطرديات والزهريات . والإخوانيات ومنها الشكوى والعتاب ونحوهما . والرثاء . والآداب ومنها الزهديات والحكم . وما عداها تبع لها . ويكنى هنا أن نتحدث عنها وإليك وجازات عن كل منها :

١ - الفخر والحماسة

يعدّ صفي الدين في مقدمة شعراء الفخر والحماسة . وقد أشرنا إلى الأسباب التي نشأتها هذه التنشئة ، ودفعته إلى هذا الميدان ، فسلكه رحباً فسيحاً وهو في

(١) صارم اللحظ : اللحظ الشبيه بالسيف .

(٢) ذو فرع : له صفات من الشعر .

(٣) أسا : أصله أساء حذف الهمزة للضرورة . وبالبيت طباق بين أساء وأحسن .

بواكير شبابه . ومنها حسبه ونسبه ومحامد قومه ومجادة أخواله وأعمامه ، وحوادث قبيلته ووقائعها . لقد فخر صني الدين بهذا وملأ أبياته بوصف هذه الوقائع وما جرى فيها من اشتباكات مع أعداء قومه وما دعاهم به إلى الثأر لقتل خاله . وفخر بجوار ذلك ، بفروسيته ومقدرته على حمل السيف وركوب الخيل ومصاحبة الليل واختراق الصحراء . كما وصف هذه الأشياء في جملة أبياته الحماسية ، وشاد بذكر أسفاره وارتحالاته في سبيل المجد وكسب المحامد ، وصبره وإبائه الضيم وترفعه عن منازل الذل والفضعة .

وفخر بشعره أيضاً وبقلمه . ولكن شعره كان آخر ما فخر به ، فلم يتخذة فضيلة يعتمد عليها ، بل ربا بنفسه عن أن يكون شعره وسيلة لكسب أو أداة لعيش أو سلماً إلى مجد . ولا سيما أن بعضهم أجل قدره عن نظمه
وردد صني الدين هذه المعاني جميعها في قصائده الحماسية – وله في الحماسة قصائد مستقلة – وفي غيرها وفي مدائحه للملوك ، حتى إنه كان أحياناً يفرّق ، وهو ببابهم ، ما يمنحونه من العطاء لقاء شعره ومدحه ، فيكسب بذلك محمداً هي أغلى لديه من العطاء نفسه .

وعلى الرغم من أن الأيام باعدت بينه وبين أسباب فخره ، وأرغمته على العيش بجوار الملوك مداحاً ، لم ينس قط طول حياته أن يفتخر بها ويردد ما كان يردده من قبل .

انظر إليه يقول عن شعره :

لَقَدْ نَزَّهَتْ قَدْرِي عَنِ الشَّعْرِ أُمَّةٌ	وَلَا مَ عَلَيْهِ مَعَشْرِي وَبَنُو أَبِي
وَمَا عَلِمُوا أَنِّي حَمَيْتُ ذِمَّارَهُ	عَنِ الْعَارِ لَمْ أَذْهَبْ بِهِ كُلَّ مَذْهَبٍ (١)
وَمَا عَابَنِي نَظْمُ الْقَرِيضِ وَمَذْهَبِي	رَفِيعٌ وَقَلْبِي فِي الْوَعْيِ غَيْرُ قَلْبٍ (٢)
أَقُولُ وَفِي كَفِّي بَرَاعٌ وَنَارَةٌ	أَقُولُ وَسَيْفِي فِي مَفَارِقِ أَغْلَبٍ (٣)

(١) النمار : ما يلزمك حفظه وحمانيته .

(٢) الوعى : جلبة الحرب – والقلب : بتشديد اللام كثير التحول .

(٣) البراع : القلم – الأغلب الأسد ويريد الشجاع .

٢ - المدح ومنه المديح النبوى

مدح صنئ الدين الملوك والأمراء وبعض الأعيان والرؤساء والأصدقاء الذين وصلت بينه وبينهم الأيام . وفي مقدمتهم ملوك بنى أرتق وأمراؤهم وملكا حماة والناصر بن قلاوون وعلاء الدين بن الأثير ، على نحو ما بينا .

وقد عرفنا طرفاً من أسباب اتصاله بهم والعوامل التى دفعته إلى مدحهم . وأشرنا إلى أنه لم يتخذ المديح وسيلة إلى التكسب والارتزاق . وأنه إنما مدح مكافأة للممدوح لقاء عطائه أو هبته أو مودته .

ومعانيه هنا معان مطروقة فى جملتها ، ومنها وصف الممدوح بالكرم والشهامة والشجاعة والنجدة وإخافة الأعداء . ومواناة الزمان له ، وخضوع الأيام لمشيئته ، وأنه صدر المجلس ، ومرهف كالسيف ، وشجاع كالأسد وثابت كالطود وكريم كالبحر ، إلى غير ذلك من المعانى .

غير أنه ينبغى لنا أن نشير إلى أن صنئ الدين ترفق أحياناً فى إخراج هذه المعانى ، فأبرزها فى أثواب بيانية قشبية قد يكون له فيها شئ من التهذيب والتجديد . ويبدو لك ذلك بخاصة ، إذا ألح على معنى بعينه فقلبه على جميع صوره البيانية المحتملة ، وأبرزه بوجوه عدة يبدو للمرء أنه ليس وراءها وجه آخر .

ولصنى الدين فى المديح النبوى - عدا بديعته « الكافية » - ثلاث قصائد طلية . ولكنه لم يخرج فيها جملة عما عُرِف فى السيرة النبوية الكريمة ، وعن الأوصاف الشريفة المأثورة ، مما ورد فى بردة البوصيرى ونحوها .

٣ - الغزل

لصنى الدين قصائد فى الغزل مستقلة ، ومقطعات وأبيات . وكثيراً ما قدم الغزل بين يدى المديح فى مفتتح القصائد على سنة القدماء .

وهو فى كل ما نظم فى الغزل لم يصدر عن عاطفة أصيلة مشبوبة ، ولا عن حب صادق عميق . وإنما كان الدافع هو تمرين القريحة أحياناً ، أو الرغبة فى التسلية . غير أنه مما لا أرتاب فيه أن صنئ الدين كان مكباً - ولو إلى حد - على

متع الحياة ولذاتها ، وكان حريصاً على أن يكون له من مباحها نصيب ، وكانت أسبابها قائمة من حوله ، فمن جواروقيان ، إلى سقاة وندمان ، إلى مجالس طرب حافلة ، ومحافل أنس أهلة ، مما لا تخلو منه قصور الملوك والأمراء والرؤساء وأعيان الناس . وقد بلغ صنئ الدين من الاتصال بهم حظاً موفوراً ، مما يثير العاطفة ويذكي الرغبة . ولكنها العاطفة العارضة العاجلة التي تشبه الفرصة السانحة لينال المرء نصيبه منها . فإذا ولت تركت ذكريات لطيفة حيوية ، وترقباً لفرصة أخرى جديدة ، وهكذا دواليك . وقد بدا صدى هذه الحياة الزاخرة ، في شعر صنئ الدين غزلاً في المذكر والمؤنث على السواء ، ووصفاً لليلى الحمر التي قضاهما بين ملذاته . وقد انساق صنئ الدين وراءها حتى مجن وزاد مجونه ، وتبدل وفجرت مبادئه ، وانحدر إلى الأدب المكشوف والأوصاف الفادحة ، مقلداً ابن حجاج شاعر العراق الماجن المشهور ، وعارضه في بعض قصائده الفاضحة . وخصص فصلاً من فصول ديوانه لغزله بالمذكر غزلاً متوجاً باسم محبييه . . ومزج غزلياته أحياناً بخمرياته مزجاً معجباً ، ووصف ما يصاحبها من ندمان وشدة وراقصات وكتوس وزجاجات وما إلى ذلك ، وربما كان هذا في أسلوب قصصي طريف . وربما قدم خمرياته بين يدي مدائحه ، كما كان يقدم الغزل .

وجمع صنئ الدين بين الغزل النفسى والحسى . فكما وصف القرب والبعد ، والوصل والصد ، والسمير والدمع ، وصف العيون الساحرة والحفون الفاترة الباترة ، والحدود الناعمة ، والنهود القائمة ، والأعطاف المائلة والأرداف الحافلة ، وما إلى ذلك . . ولكن غزله النفسى أربى وأكثر ، وأملح وأسحر .

ومن غزله ، وفيه نزعة نفسية :

لَوْلَا الْهُوَى مَا ذَابَ مِنْ حَنِينِهِ صَبَّ أَصَابَتُهُ عِيُونَ عَيْنِهِ (١)
مُتِّمٌ لَا تَهْتَدِي عَوَاذُهُ إِلَّا بِمَا تَسْمَعُ مِنْ أُنِينِهِ (٢)

(١) العين : جمع أعين وعيناء . ويطلق على بقر الوحش ، لسواد عينه وسعته وهو هنا على التشبيه يريد الحسان .

(٢) المتيم : الذي تيمته المرأة أى عدته وذالته .

أَصْبَحَ يَخْشَى الظَّنِّيَ فِي كِنَانِهِ وَلَا يَخَافُ اللَّيْثَ فِي عَرِينِهِ ^(١)
يَعْتَدِرُ الرُّشْدُ إِلَى ضَلَالِهِ وَيُقْرَأُ الْعَقْلُ عَلَى جُنُونِهِ
لَا تَحْسَبُوا مَا سَاحَ فَوْقَ خَذِهِ مَدَامَا تَسْفَحُ مِنْ جُهُونِهِ ^(٢)
وَإِنَّمَا ذَابَ جَلِيدُ قَلْبِهِ فَظَرَفَهُ بِرَشْحٍ مِنْ مَعِينِهِ ^(٣)

٤ - الوصف

ربما كان الوصف أوسع أبواب شعره وفنونه . ذلك لأن شعر صفي الدين قائم في جملته على إتقان الصورة وجمال إخراجها ، وذلك باستعمال الأداة البيانية المناسبة . فالوصف بذلك دعامة أولى من دعائم شعره .

غير أننا هنا نقصد الوصف بأضيق معانيه وآفاقه ، وباعتباره فنا مستقلاً من فنون الشعر ، وذلك حينما يتناول مناظر الطبيعة وأجزاء البيئة وأدواتها ومكملاتها . لقد برع صفي الدين في ذلك براعة ملموسة تدل على دقة حسه وعمق صلته بمحتويات بيئته ، وشدة تأثره بما تقع عليه عينه .

لقد وصف الطبيعة وما تحتوى عليه من أشجار وأزهار وأطيوار وأنهار ووديان وجسور ومدن وأحراج ، ووصف الصيد بالبندق والحرّوج له وما يتبعه من بزاة وصقور وكلاب . ووصف الكراكي والحليل والقوس والسيف والترس ، ووصف الأعواد وأدوات الغناء والمغنين والألحان ، ومجالس الأُنس والراقصات والشموع ، وأجاد في وصف الخمر وأدواتها ، ونعت الفصول والشهور واللّيل الطويل وأيام اللّهُو، إلى غير ذلك .

وقد ترى أبياته الوصفية - في وصف خمر أو منظر طبيعي مثلاً - في مقدمة مدائحه ، أو خلالها ، غير أن للوصف عنده قصائد مستقلة ، وأراجيز خاصة .

(١) كناس الظني : بيته . وعرين الليث غابه .

(٢) تسفح : تسيل وتنصب .

(٣) الجليد : القوي الصلب الشديد أو الثلج . والمعين : مجرى الماء .

قال بصف إبريق الشراب :

وإبريقٍ له نُطقٌ عَجِيبٌ إذا ما أُرْسِلَتْ مِنْهُ السَّلَافُ^(١)
كفأفاه تَلْجَلَجُ فِي حَدِيثِهِ يردُّدُ لفظُهُ والفاه قَافُ^(٢)

وقال في مغنية بالعود :

خودٌ شدتْ بِلِسَانِهَا وَبَنَانِهَا حَتَّى نَشَابَهَ ضَرْبُهَا وَنَشِيدُهَا^(٣)
فَكَانَ نَغْمَةَ عُوْدِهَا فِي صَوْتِهَا وَكَانَ رَقَّةَ صَوْتِهَا فِي عُوْدِهَا

وقال في فرس أدهم محجل :

وَأدْهَمِ يَقِي التَّحْجِيلِ ذِي مَرَحٍ يَمِيسُ مِنْ عَجْبِهِ كَالشَّارِبِ النَّوِيلِ^(٤)
مُطَهَّمٍ مُشْرِفِ الْأُذُنَيْنِ تَحْسَبُهُ مُوَكَّلًا بِاسْتِرَاقِ السَّمْعِ مِنْ رُحْلِ^(٥)
رَكِيْتُ مِنْهُ مَطَاً لَيْلٍ تَسِيرُ بِهِ كَوَاكِبُ تُلْحِقُ المَحْمُولَ بِالمَحْمَلِ^(٦)
إِذَا رَمَيْتُ سِهَامِي فَوْقَ صَهْوَتِهِ مَرَّتْ بِهَادِيهِ وَانْحَطَّتْ عَلَى الكَفَلِ^(٧)

٥ - الإخوانيات

نعني بها أشعاره التي دفعت على نظمها، علاقاته القلبية بأصدقائه، وصلاته الودية بإخوانه. وقد امتلأ ديوانه بهذه الإخوانيات، نتيجة لضخامة علاقاته هذه وكثرة خلصانه، ومنهم من كان بالحلة، أو بغداد، أو مكة أو القاهرة أو دمشق أو ماردين أو غيرها. ولهذا كان كثيراً ما يراسل وإياهم بهذه الأشعار يرسلون إليه

(١) السلاف : الخمر .

(٢) الفأفاه : الذي يردد حرف الفاء كثيراً في كلامه . - تلجلج : اضطرب وتردد في كلامه .

(٣) الخود : الحسنة الخلق الشابة أو الناعمة .

(٤) الأدهم : الأسود - اليقق : يفتح وسط أو كسره ، الشديد البياض . التحجيل :

بياض القوائم - ييمس : يميل عجباً - النمل : السكران .

(٥) المظهم : السمين والتحفيف ضدان . والمراد هنا التحفيف الجسم الضامر . مشرق الأذنين

مرفوعهما . - زحل : نجم .

(٦) المطا : الظهر . الحمل : منزلة من منازل الشمس .

(٧) الصهوة : المنن والظهر . - الكفل : المعجز . - الهامى : العنق .

فيجيهم ، أو يرسل إليهم فيجيبنونه . وقد يقدم إليهم هذه المراسلات بمشبهيات من الغزل أو الخمریات أو نحوهما .

وقد تناول في رسائله الشعرية هذه كثيراً من نواحي حياته ونواحي نفسه ، فوصف فيها إقاماته وترحلاته ، وذكر أشواقه ، وبث آماله ، وقدم شكواه ، كما شكر ومدح وقارض الثناء . وعاتب وصفح ، واعتذر واستغفر ، واستهدى واستدعى ، وداعب وماجن وتفكه ، ولا غز وحاجي ، وهناً وعزى ، إلى غير ذلك . كما تناول بعض نواحي أصدقائه . فإن خاطب - مثلاً - عالماً ذكر العلم وما إليه ، وإن خاطب منشئاً وصف القلم والكتابة . وهكذا .

وقد تفرقت إخوانياته هذه بين جملة أبواب في ديوانه ، فنها في باب الإخوانيات ، وباب الشكوى والعتاب ، وباب الهدايا والاعتذار ، وباب الألغاز وغيره ، وما يتصل بكل باب منها . طوراً قصائد برمتها ، وطوراً مقطعات في صدور رسائل منثورة .

وما كتبه إلى الشيخ مهذب الدين محمود بن يحيى النحوى الحلبي ، قصيدة أرسلها إليه من ماردين يتشوق ويصف فيها حال مقامه بها ، وإقبال سلطانها عليه وفي مطلعها :

أَخِلَّائِي بِالْفِيحَاءِ إِنْ طَالَ بُعْدُكُمْ
فَأْتُمْ إِلَى قَلْبِي كَسَحَرِي مِنْ تَحْرِي (١)
وَمَنْ يَخْلُ مِنْ تَكَرَّرِ ذِكْرِي حَدِيثُكُمْ
فَلَمْ يَخْلُ يَوْمًا مِنْ مَدِيحِكُمْ شِعْرِي ...

وكتب قصيدة إلى صاحبه مجد الدين بن شيخ التل ببغداد ، وكان قد وعده بالاجتماع بمدينة إياس ، وتأخر عن السفر إليها . فنها :

يَا خَلِيلِي مِنْ دُونِ كُلِّ خَلِيلٍ وَأُنْدِي مِنْ دُونِ أَهْلِي وَنَاسِي

(١) الفيحاء : يريد الخلة بلده . - السحر : الرثة - والنحر : أعلى الصدر وموضع القلادة

لَا تَكُنْ نَامِيًا لِعَهْدِي فَإِنَّ لَسْتُ مَا عِشْتُ لِلْعُهُودِ بِتَامِي

٦ - الرثاء

هذه الحياة التي عاشها صفي الدين . وهذه الصلوات المتعددة التي اتصلها . أوجبت عليه أداء فريضة الرثاء عند حلولها ، وفاء للأيدى الكريمة التي رحبت به ، وجزاء للقلوب الرحيمة التي وادته وأحبتة . فكان رثاؤه مظهراً نبيلاً من مظاهره النفسية . والرثاء فن أصيل من فنون صفي الدين .

وفي ديوانه نحو ثلاثين قصيدة طلية ، رثى بها أو عزى ، بعض من وردت أسماءهم في أطوار حياته . لقد رثى الملك المنصور الأرتقي وبعض أمراء بيته . ورثى الملك المؤيد صاحب حماة وعزى فيه ابنه الأفضل . ورثى الأمير ركن الدين إسحق بن بهادر المنصوري ، ورثى قاضي قضاة ماردين شمس الدين عبد الله بن المهذب ، ورثى صديقه الشهاب محمود الحلبي .

وأجزع رثاء له هو رثاء خاليه صفي الدين بن محاسن الذي قتل غيلة في مسجده . وجلال الدين بن محاسن الذي قتل في بعض وقائع أعدائه . أما مثار الجزع فالقراية والنسب وصلة الدم والخطب المشترك ، والحقد على العدو . وعدم البلوغ في أخذ الثأر إلى أقصى غاياته .

ودار صفي الدين في معاني مراثيه وتعازيه في فلك القدامى ، وقصاراه البكاء والتفجع على المرثى وبيان صفاته والإشادة بمحامده ، واستخراج العبرة والحكمة خلال ذلك ، والنعي على الزمن الغادر والدنيا الخئون .

٧ - الأدب والحكمة

لصفي الدين أبيات قليلة ومقطعات وجيزة في الآداب والحكم وفي الزهد والتعشف ، ولم يكن صفي الدين صاحب حكمة يقعد لها ، ولا ضارب مثل يتعمده ، ولا كان مشرعاً يفكر في الفضيلة والخلق الكريم ويقنن لهما ويشرع . لذلك وجزت أبياته وصغرت مقطعاته في هذا الباب .

غير أن صفي الدين كان ذا استعداد طيب لصوغ الحكمة وتصوير الفضيلة لو أن ظروف حياته وادته في هذه السبيل . وذلك لأنك تراه - مثلاً - إذا حرص

أو مدح أو رث أو وصف ، ينجح أحياناً إلى الكلمة الشاملة والعبارة العامة التي يصدق معناها ويسمو هدفها . ينتزعها من المناسبة ، فتصير حكمة رائعة أو نصيحة جامعة ، أو نحو ذلك .

وتثوب إليه نفسه من مبادها أحياناً ، فيعاف الدنيا ويزهد فيها وينوء إلى الله سبحانه وتعالى فيسأله العفو والمغفرة من ذنوبه .

فمن نصائحه المشهورة بحث على تعلم اللغات :

بِقَدْرِ لُغَاتِ الْمَرْءِ يَكْتُمُ نَفْعُهُ فَتِلْكَ لَهُ عِنْدَ الْمَلِمَاتِ أَعْوَانُ
تَهَافَتْ عَلَى حِفْظِ اللُّغَاتِ مُجَاهِدًا فَكُلُّ لِسَانٍ فِي الْحَقِيقَةِ إِنْسَانُ
ومنها في الأسفار :

تَعَرَّبَ وَابْعَ فِي الْأَسْفَارِ رِزْقًا فَلَنْ تَعِيدَ الثَّرَاءَ بِغَيْرِ سَعْيٍ
لَتَفْتَحَ بِالتَّعَرُّبِ بَابَ نُجْحٍ وَهَلْ يُورِي الزِّنَادَ بِغَيْرِ قَدْحٍ (١)

ومنها في مخاطبة الجليس :

اسْمَعْ مُخَاطَبَةَ الْجَلِيسِ وَلَا تَكُنْ عَجَلًا يَنْطِقُ قَبْلَمَا تَتَفَهَّمُ
لَمْ تُعْطَ مَعَ أُذُنِكَ نُطْقًا وَاحِدًا إِلَّا لِنَسَمَعِ ضِعْفَ مَا تَتَكَلَّمُ

٤ - مبادئه

مثل صفى الدين الحلبي كمثل أكثر شعراء العربية لا يدين بمبدأ اجتماعي خاص ، ولا يذهب في الحياة مذهباً محدوداً مبنياً على حسن نظر ودقة بحث وعمق فكر وصحة استنباط ، مع الإيمان به والانتفاع باتباعه . ولا هو إذا دان بمبدأ أو ذهب مذهباً ألح عليه في شعره ودأب في الدعوة إليه ، وبين للناس وجاهته ، ودلل على أصالته وصحته وحسن عاقبته . واستفد إليهم كل براهينه وحججه ، ورغب إليهم أن يكونوا فيه على غراره . وإنما هي اللمحة الخاطفة والحكمة السانحة

(١) يورى : يشمل . - القلح : الإشمال .

العابرة، والفكرة الشاردة، والحلقة الخلقية الشريفة العاجلة، يومض بها خياله، أو تلتمع في ذهنه، أو ينبض بها ضميره بدافع من وحى الساعة وإلهام المناسبة. فيقيدها بعد شرود، ويسجلها قبل براح، ملتقطاً لها من بين أحراج الخيال وأدغال الذهن، مقتنصاً لها من بين موماة الفكر قبل أن تفر.

وما إن تتصفح ديوانه وتعي أبوابه حتى تطالعك وتروقك من آرائه واتجاهاته ومبادئه جملة صالحة متناثرة، في خلال حماسياته وأمداحه وخمرياته واستدعاءاته ونحوها. فإن صلحت أن تكون هذه مبادئ، فتلك مبادئ صني الدين. ومنها: طلب اللذة

يرى صني الدين أن الحياة فرصة للتمتع. وأن العمر قصير - مهما طال - وأن كل ما يأمله المرء في حياته غير اللذة العاجلة، إنما هو غرور. لذلك هو يثب إلى اللذات وثباً، ويباكرها ويماسيها، وينتهز كل فرصة تسنح بها فيعكف عليها وينقطع لإيها لا يريم.

ويرى أن لذات الحياة هي اللذات المادية من خور وحسان وغلمان وسقاة وندمان وغناء وقيان، وما إلى ذلك. يقول في بعض استدعاءاته:

ثَبِّ إلى اللذاتِ فالعمرُ قصيرٌ وحيَاةُ المرءِ في الدنيا غرورٌ^(١)
 لا تدعَ نهْبَ سرورٍ عاجلاً كلما أمكنَ في الدنيا سرورٌ^(٢)
 فاسرعِ اخلطوْ فيندي شادينُ وفتاةٌ وخورٌ وأمورٌ^(٣)
 وسقاةٌ وحداةٌ وغناً وجنوكٌ وطبولٌ وزُمورٌ^(٤)

(١) الغرور: الخداع والطمع بالباطل.

(٢) عاجلاً: مفعول ثانٍ للاندفاع أي ينهب سريعاً. أو حال من الفاعل أي مسرعاً.

(٣) فاسرع: هزتها هزة قطع، وقد سهلها لضرورة الشعر. - الشادين: الظبي إذا قوي واستغنى عن أمه، ويريد به هنا الغلام أو الساق الصغير.

(٤) الحداة: جمع الحداي وهو من يزرع الإبل ويسوقها، ويريد به المنفى. - غنيا: أصله الغناء قصره للضرورة.

كَلَّمَا دُرْنَا رَأَيْنَا بَيْنَنَا شَادِنًا يَشْدُو وَكَاسَاتٍ تَدْوُرُ

ولا يكتبني صني الدين بسن هذه السنة لنفسه أو لصديقه ، بل يهيئ له أسبابها ويغريه بها ، ويقول :

التَقِطِ اللَّذَةَ حَيْثُ أَمْكَنْتَ فَإِنَّمَا اللِّذَاتُ فِي الدَّهْرِ لُقَطٌ^(١)

إِنَّ الشَّبَابَ زَائِرٌ مُودِّعٌ لَا يُسْتَطَاعُ رَدُّهُ إِذَا فَرَطَ^(٢)

ولصني الدين مبادل كثيرة مسجلة في ديوانه وقصائد ماجنة دالة على اعتناقه هذا المبدأ ، وإن قيل إنه نظمها تمريناً للقريحة .

الذكاء والحظ

يعتقد صني الدين أن ذكاء المرء محسوب عليه وأن ما يرزقه من العلم أو الأدب ، كفاء لما يجرمه من المال . وفي ذلك عزاء للأديب . يقول :

لَنْ تَلَمْتَ حَدِّي صُرُوفُ النَوَائِبِ فَقَدْ أَخْلَصْتَ سَبِيكِي بِنَارِ التَّجَارِبِ^(٣)

وَفِي الأَدَبِ البَاقِي الَّذِي قَدْ وَهَبَنِي عَزَاءً مِنَ الأَمْوَالِ عَنْ كُلِّ ذَاهِبٍ^(٤)

ويؤمن بالحظ وأنه يوافق المرء أو ينفر ، حسب قدره ، لا حسب قدرته . فيقول :

فَكَمْ غَايَةَ أَدْرَكْتُهَا غَيْرَ جَاهِدٍ وَكَمْ رُبْمَةً قَدْ نَلَيْتُهَا غَيْرَ طَالِبٍ^(٥)

ويقول :

وَمَا كُلُّهُ وَإِنْ فِي الطَّلَابِ بِمُخْطِئِي وَلَا كُلُّهُ مَاضٍ فِي الأُمُورِ بِصَائِبٍ^(٦)

(١) لقط : جمع لقطعة على وزن حزمة وهمزة . وهي ما التقط من الأرض . ويريد أنها فرص تنهز وتختلس .

(٢) فرط : سبق وتقدم وذهب .

(٣) تلم الشيء : كسر حرفه ، ويريد هنا أصابته وأثرت فيه . - صروف النوائب : إصابات الشدائد التي تنوب المرء وتتميره - أخلصت سبكي . أجادت تعليمي وتهذيبى . والسبك إذابة المدن ثم إفراغه في قالب جديد .

(٤) يريد بالأدب أخلاقه وفضائله ، أو شعره ونثره ومقدرته .

(٥) الجاهد : المجاهد المتعب .

(٦) الوافي : المبطيء من وفي يئى - الماضى : السائر والساعى .

يرى صفي الدين أن المال ينبغي أن يحرص المرء عليه وقاية لعرضه ونفسه فحسب ، ولا يحرص عليه إلا بمقدار ما يقبضهما . فإذا صان ماله عرضه ونفسه ، لم يبال بعد ذلك بأى حادث من حوادث الدهر ، ولا أى صرف من صرفه . يقول :

أَقِي النَّفْسَ بِالْأَمْوَالِ حَتَّى إِذَا وَقَّتْ كُنُوزُ اللَّهِمَى نَفْسِي وَقَيَّتْ بِهَا عِرْضِي (١)
وَلَا أُخَدِّشِي إِنْ مَسَّنِي وَقَعُ حَادِثٍ فَتِلْكَ يَدُ جَسَّ الزَّمَانُ بِهَا نَبْضِي
ويقول :

يَلْدُ لِنَفْسِي بَدْلُ مَا قَدْ مَلَكَتُهُ وَبَسَطُ يَدِي فِيمَا تَجَمَّعَ فِي قَبْضِي (٢)
وَلَمْ أَتُبِ بَعْضَ أَمْوَالِي إِلَّا لِأَنِّي أَسْرُّ بِمَا فِيهِ الْوِقَايَةَ عَنِ عِرْضِي

الشعر

لا يرى أن يتخذ الشعر وسيلة للكسب ولا وسيلة للفخر . بل الفخر هو المستمد من الآباء والأجداد ، وقبل ذلك من عمل المرء بنفسه وما يتصف به من همة ومغامرة ، وهمة المرء وحده ينبغي أن تكون المعين الأول للفخر .

لَسْتُ بِمَنْ يَبْدُلُ مَعَ عَدَمِ الْجِدِّ بِفِعْلِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ (٣)
مَا بَنَيْتُ الْعَلِيَاءَ إِلَّا بِجِدِّي وَرُكُوبِي أخطارَهَا وَاجْتِهَادِي
وَبِلَهْظِي إِذَا نَطَقْتُ وَفَضْلِي وَجِدَالِي عَنِ مَنْصِبِي وَجِلَادِي
غَيْرَ أَنِّي وَإِنْ أَتَيْتُ مِنَ النَّظْمِ بِلَفْظٍ يُذِيبُ قَلْبَ الْجَمَادِ
لَسْتُ كَالْبُحْتَرِيِّ أَفْخَرُ بِالشَّمْرِ وَأُنِّي عَطَقَ فِي الْإِيرَادِ (٤)
وَإِذَا مَا بَنَيْتُ بِنَيْتَا تَبَخَّرَ تَ كَأَنِّي بَنَيْتُ ذَاتَ الْعِمَادِ (٥)

(١) أقي النفس : أحميها - اللهى : العطية والمال ، جمع لhie - العرض : ما يلزمك حمايته .

(٢) المراد بقبضه : يده .

(٣) الجد : الاجتهاد والكد .

(٤) البحتري الشاعر العبسي المشهور وكان يديه شعره إذا أنشده - العطف : الجانب .

(٥) ذات العماد : إرم مدينة عاد .

إِنَّمَا مَفْخَرِي بِنَفْسِي وَقَوْمِي وَقَنَايِي وَصَارِيِي وَجَوَادِيِي^(١)

الأسفار

أغرم صني الدين بالأسفار وتحمل مشقاتها ، وأصبح الضرب في بطون البوادي والرحلة من مصر إلى مصر غاية من غاياته سعياً وراء الشهرة والمجد، وخير له أن يتوسد أيدي المطايا وأن يعانق السيوف من أن يقيم على هوان .

تَوَسَّدُ فِي الْفَلَا أَيْدِي الْمَطَايَا وَقُدُّ مِنْ الصَّيِيدِ لَهُ حَشَايَا^(٢)
وَعَانِقُ فِي الدَّجَى أَعْطَافَ عَضْبٍ يَدْبُ بِجَدِهِ مَاهُ لِلنَّيَا^(٣)
وَصَيَّرَ جَاشَهُ فِي الْبَيْدِ جَيْشًا وَمِنْ حَزَمِ الْأُمُورِ لَهُ رَبَايَا^(٤)

القناعة

وهو لا يفتأ يرحل، إباء وشمماً أن يقيم على ذل. وما دام معه عقله فهو جدير بأن يبلغه سؤاله دون أن يتعرض لما تأباه نفسه . فإذا شعر بأن بلوغ سؤاله سيعرضه لمذلة ويحمل عليه ضيماً ، عف عنه وقنع وحمل مشقة الحرمان . وبقناعته يستوى الناس لديه ، فيصبحون بمنزلة أهله ، وتصيح جميع الأقطار أقطاره .

ذَاكَ أَنِّي لَا تَقْبَلُ الضَّمِيمُ نَفْسِي وَلَوْ أَنِّي افْتَرَشْتُ شَوْكَ الْقَتَادِ^(٥)
هَذِهِ عَادَتِي وَقَدْ كُنْتُ طِفْلاً وَشَدِيدٌ عَلَيَّ غَيْرُ اعْتِيَادِي
فَإِذَا سِرْتُ أَحْسَبُ الْأَرْضَ مِلْكِي وَجَمِيعَ الْأَقْطَارِ طَوْعَ قِيَادِي
وَإِذَا مَا أَقْتُ فَالنَّاسُ أَهْلِي أَيْنَمَا سِرْتُ وَالْبِلَادُ بِلَادِي

(١) القناعة : الريح - الصارم : السيف .

(٢) توسد : اتخذ وساداً ورسادة أي متكأً ومجدة . الفلا : جمع فلاة وهي المغازة التي لا ماء فيها ، والقفز . - المطايا : الدواب جمع مطية . قد : اقطع - الصيد : وجه الأرض والتراب - حشاياء : جمع حشية وهي الفراش الخشوي .

(٣) الأعطاف : الجوانب - العضب : السيف القاطع .

(٤) الجأش : نفس الإنسان وقلبه ، ورواع القلب أي مكان الفرع منه .

(٥) الضميم : الذل - القتاد : شجر الشوك .

لَا يَفُوتُ الْقَبُولُ مَنْ رَزَقَ الْعَقْلَ وَحَسَنَ الْإِصْدَارَ وَالْإِيرَادَ^(١)
وَإِذَا صَبَّرَ الْقَنَاعَةَ دِرْعًا كَانَ أَدْعَى إِلَى بُلُوغِ الْمُرَادِ

٥ - شيعيته

تأثر صنى الدين بالنزعات الشيعية لنشأته في بلاد العراق ولا اتصاله بدول
تشييع ، وقيل إنه كان رافضياً . ولكن هذه لم تظهر في شعره ظهوراً قوياً ، ولم تبرز
كما ينبغي لها البروز . وما هي إلا مقطعات يسيرة مدح بها الإمام علياً رضي الله عنه .
وقصيدة بائية عارض بها بائية عبد الله بن المعتز ويرد عليه فيها . وبائية ابن المعتز من
الشعر المذهبي السياسي يحتج فيها للعباسيين على العلويين ، ويقول في مطلعها :

أَلَا مَنْ لِعَيْنٍ وَتَسْكَابِهَا تَشَكَّى الْقَدَى وَبُكَاهَا بِهَا^(٢)
فَسَأَلَ نَقِيبُ الْأَشْرَافِ بِالْعِرَاقِ وَهُوَ تَاجُ الدِّينِ الْآوَى ، صَنِ الدِّينِ أَنْ يَنْظُمَ
قَصِيدَةَ عَلِيٍّ غَرَارَ قَصِيدَةِ ابْنِ الْمُعْتَزِ يَرُدُّ بِهَا عَلَيْهِ . فنظمها وقال فيها :

أَلَا قُلُوبٌ بِشَرِّ عَبِيدِ الْإِلَهِ وَطَائِفِي قَرِيشٍ وَكَذَابِهَا
وَبَاغِي الْعِبَادِ وَبَاغِي الْعِنَادِ وَهَاجِي الْكِرَامِ وَمُعْتَابِهَا^(٣)
أَأَنْتَ تَفَاخِرُ آلَ النَّبِيِّ وَتَجِدُّهَا فَضْلَ أَحْسَابِهَا^(٤) . الخ

وهذه القصيدة هي القصيدة الوحيدة في ديوان صنى الدين ، من هذا اللون
السياسي المذهبي .

هذا : ولعل لصنى الدين قصائد أخرى في هذا الباب لم تسجل في دواوينه
المتداولة التي بين أيدينا .

(١) الإيراد : أن يرسل المرء دوابه إلى الماء لشرب ، والإصدار إرجاعها . ويريد هنا حسن
التصرف وتقدير العواقب .

(٢) تشكى : أى تشكى مضارع محذوف التاء تخفيفاً وبالجملة حال . القدى ما يكون في العين
من كدر .

(٣) المعتاب : الذى يهجو غيره فى غيابه

(٤) تجدد : تنكر - الأحساب : المفاخرة والشرف .

٦ - منزلته

صنى الدين أشهر شعراء العراق في العصور التركية ، بل هو أشهر شعراء العربية على الإطلاق في زمانه . لا يكاد يضارعه إلا معاصره شاعر مصر الكبير جمال الدين بن نباتة المصرى المتوفى عام ٧٦٨ هـ . ولكل منهما خصائص ومميزات يمتاز بها ، فكلاهما شرق شعره وغرب ، وأعجب وأطرب . وهما ، بغير شك زعما الشعراء في زمانهما . وابن نباتة سيد شعراء التورية ، وهو أبرز القادرين عليها والمتعصبين لها بعد القاضى الفاضل . ولم يأت بعده إلى اليوم شاعر يدانيه فيها . والتورية والاستخدام كانا في مقدمة فنون البديع التى احتفل بها الذوق المصرى منذ العصور الوسطى حتى يومنا هذا . وفى تلك الأيام البعيدة كانا يبدوان فى الأدب الفصيح والعامى ، وكانا يجريان فى أساليب الجمهور العامة . أما الآن فتواريا جملة ، ولم يعد لهما فى الأساليب الفصيحة مكان إلا لناما . ولكن لا يزالان باقيين فى آداب العامة ومخاطبتها . لهذا ولغيره كان ابن نباتة خير من يمثل الذوق المصرى الأصيل من هذه الناحية .

أما صنى الدين فقد عاش أكثر عمره بعيداً عن الشام ومصر ، فلم يتأثر كثيراً بمناهج المصريين والشاميين ولم يحتفل كثيراً بما احتفلوا به من دعائم الأسلوب ولا سيما التورية والاستخدام ، وهو بهذا يمثل الذوق الأدبى فى العراق وفيما وراء مصر والشام .

وهو يمثل هذا الذوق أيضاً بمجونهاته التى تبذل فيها ونهج فى صوغها منهج ابن حجاج وابن سكرة من شعراء العراق المتأخرين . فإذا كان ثمة فارق بين صنى الدين وابن نباتة ، فهو الفارق بين الأدب العراقى والأدب المصرى الشامى ذلك الحين .

ويرجع شعر صنى الدين بين الصنعة والطبع . فإذا أطلق نفسه على سجيئها ولم يقيد بها بهدف بديعى ، جزل وقوى ودانى شعراء العباسية فى أيام زهوها ونضارتها

وإذا جنح إلى الصنعة اقتدر عليها وأصاب هدفه منها . ولكنه كثيراً ما يبدو متكلفاً متعسفاً في أذواق الدين لا يتأبون على الأهداف البديعية .

من هذا وذاك ترى أن لصنى الدين مستويات أسلوبية متعددة ، فهو لذلك من أكثر شعراء العربية افتناناً وتلاعباً ، بل لعله أقدرهم في هذا الناحية إذ يستطيع أن يصرف أسلوبه إلى المستوى الذى يريد .

وقد روى أن صاحب القاموس المحيط مجد الدين الفيروز أبادى لقيه في بغداد فقال : « اجتمعت سنة ٧٤٧ هـ بالأديب الشاعر صنى الدين بمدينة بغداد فرأيته شيخاً كبيراً وله قدرة على النظم والنثر وخبرة بعلوم العربية والشعر . وكان شيعياً قحاً . ومن رأى صورته لا يظن أنه ينظم ذلك الشعر الذى هو كالدر في الأصداف » .

وقال عنه صلاح الدين الصفدى : « نظم الشعر وله سبع سنين . فلما بلغ الحلم اشتغل بالعربية والأدب . ثم بلغ الرياسة . ورحل إلى البلاد ودخل إلى القاهرة . وكتب عنه بها أبو محمد الحلبي وأبو الفتح سيد الناس وأبو العباس » .

وقال : « وتقدم في علم الأدب والشعر . وله النظم الرائق الفائق في النهاية . ومدح النبي صلى الله عليه وسلم بقصيدة وهي المعروفة بالبديعية وهي ميمية . وله ديوان شعر كبير . وطارح أهل زمانه في الشعر وطارحوه ، وأثنوا على فضيلته في ذلك . وكان شيعياً . وقد أنفق غالب مدائحه في ملوك مارددين بنى أرتق . وكان يتردد إلى حماة ويمتدح ملكها المؤيد والأفضل ولده . وكانا يعظمانه وهو من الشجعان الأبطال » .

وقال أبو محمد الحسن بن حبيب عنه ، ما ملخصه : « هو شاعر المشرق ، تقدم على كثير من الأول ، وبين تقصير أرباب السبع الطوال . وبرع في فنون الأدب وجمع أشتات أقوال العرب . وسار في الأقطار ذكره ، واشتهر في الأمصار نظمه ونثره . كان حسن الأخلاق جميل المحاضرة بديع المحاورة وذا نسب ورياسة ولب وحماسة » .

وبعد فصنى الدين أحد الشعراء القلائل الذين جمعوا بين الفروسية والشعر كعنتر وأبي فراس . وخاضوا غمار الحروب وغمار الأدب . ولا ريب أنه أحيا دولة الأدب والشعر العربي في زمانه، وعمرها بكفاية وجدارة وحفظ سلسلة الفحولة موصولة الحلقات ، في تلك العصور التركية الأعجمية والمستعجمة . وأنه سبق إلى بعض المبتكرات الأدبية . ولا ريب أيضاً أنه هو وابن نباتة لم يأت بعدهما شاعر فحل حتى ظهر محمود سامى البارودى في عصر النهضة الحديثة .